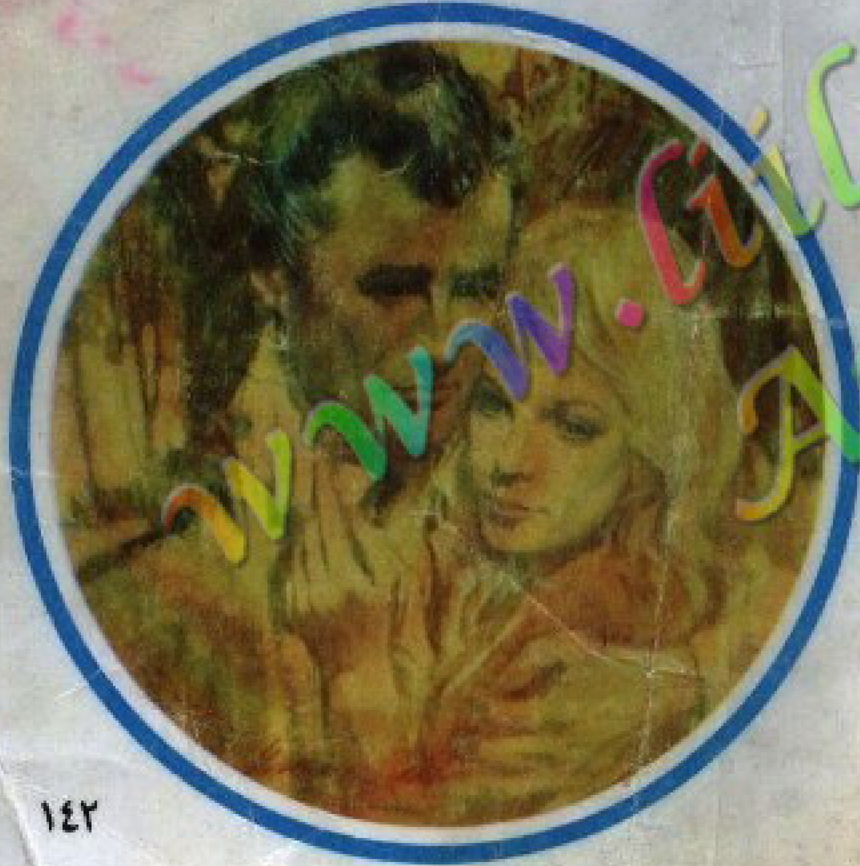
روايات عبير



آن ميثر

مرّة في العمر



١٤٢

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 142

مرة في العمر

العاطفة الصادقة تطلق سهمها باكراً، ومرة في العمر. هاربيت في مطلع صباها عندما يغزو الفرنسي اندريه قلبها بسحر شخصيته ووسامته الفذة، ولكن ماذا تعرف عن حياته؟ قرر فجأة ودون سابق انذار ان يسدل ستاراً كثيفاً على قصة حبها المتأججة، طاعناً اياها في الصميم بشكل لا يغتفر او ينسى. لكن وراء اختفاء اندريه سرا عميقاً اخفاه عنها منذ البداية، ولما التقته مجدداً بعد ثماني سنوات من الفراق المر، ظل محتفظاً بصمته امام اتهاماتها المهينة الشرسة.

لا شيء يغير ما حصل من قبل. الماضي يقف جداراً بينهما. وبما انها لم تقدر ان تثق به سابقاً، كيف يمكنها ان تثق به الآن؟ وفرضاً انها توصلت الى كشف السر الدفين الذي يعذبها، هل تجد في نفسها المقدرة على الغفران بعد طول كراهية وحقد؟

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
DEVIL IN VELVET

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - بيت من الغبار

كان الباب مردوداً فلم تحتج الى المفتاح، ولما دفعته فاحت رائحة قوية من العفن والرطوبة اثارت اشمئزازها كأنها رائحة تفاح فاسد. لم تر من الاثاث سوى طاولة على جانبيها مقعدان طويلان من الخشب، وكرسي هزاز عتيق مهترىء قرب الموقد. المجل المحفر رأت فوقه حنفية قديمة، اعتقدت ان موضتها اندثرت منذ سنين، وكانت ارضية الغرفة الحجرية مغطاة بأوراق شجر وبقايا اخرى دخلت ولا ريب من فتحات النوافذ. وفي الزاوية علامات تدل على ان مخلوقات غريبة احتلت المكان من قبل وخلفت فيه هذه النفايات. كان الهواء منعشاً بالنسبة الى الحرارة في الخارج، وبسبب قميصها الملتصق بظهرها العارق احست برعشة برد في جسمها. لم يكن البيت نظيفاً منذ استعماله لآخر مرة، وقد غطى رماد الموقد كل شيء بطبقة خفيفة من الغبار.

أحست هاريت خيبة تلسع قلبها. هل من المعقول ان تبقيا هنا؟ ان المكان قذر ورطب. ثم ما هذا الحفيف الذي تسمعه؟ جرذان؟ وبحركة لا شعورية، رفعت قدميها عن الارض بالتناوب، وتملكتها رغبة في ان تطوي حافتي بنطلونها حول كاحليها! اين البيت الريفي النظيف الذي توقعته، البيت الأبيض الحلوي المشيد في وادي دوردون الشهير بعرائش العنب وفطائر الباتيه، حسبما جاء في كتيب الدعاية الذي اطلعت عليه؟ كيف يمكن ان يباع بيت مهجور كهذا على اساس انه مكان صالح للسكن؟ كيف جرؤ احد على ان يبيعها اياه؟

كانت قد تركت سوزان في السيارة لكنها سمعت خطواتها على الممر

تقترب منها، فاستدارت اليها وهي تحاول اخفاء شيء من الحنق والخيبة.
لقد مرت سوزان بظروف عصيبة في الاسابيع الاخيرة، واملت هاريت الآن ان لا يفسد منظر هذا المكان كل الجهود الطيبة التي بذلت من اجل راحتها. بدت فكرة ممتازة ان تصطحب ابنة اختها الى جنوب فرنسا لبضعة اشهر كي تغير جوها السابق كلياً، وكانت بادرة لطيفة من تشارلز، رب عملها، ان يمنحها هذه الاجازة. ولكن كل ما ادخرته من مال دفعته ثمناً لهذا المكان، لكونها عوّلت على تأكيدات الوكالة في باريس بأن هذا البيت الريفي في روشلاك يطابق المواصفات التي تريد، والآن عندما اكتشفت الحقيقة المزيفة شعرت بإهانة مرة.

وسمعت سوزان تقول بصوت متفائل:

- اهذا هو المكان؟

فاجابتها هاريت متنهدة:

- نعم، مع الأسف.

تخطتها الصغيرة ووقفت بالباب تسألها:

- لماذا مع الأسف؟

نظرت اليها هاريت كأنها لا تصدق ما تسمع واشارت بيدها قائلة:

- هل السؤال ضروري؟

فردت سوزان ببساطة:

- صحيح انه قذر، لكن هذا ليس مهماً. اقصد اننا نستطيع تنظيفه بسرعة.

علقت هاريت بصوت خائب:

- انه رطب! الا ترين هذه البقع على الحائط؟ اني اخاف التفكير بالذي ينتظرنا في الطابق العلوي! وبالنسبة الى الاثاث...

اجتازت سوزان ارض الغرفة دون ان تبالي باحتمال وجود ضيوف غير مرغوب فيهم، وسألتها:

- هل تجولت في الداخل؟

ثم فتحت باباً لم تنتبه اليه هاريت واردفت:

- هذه غرفة الجلوس. هل تدعى كذلك بالفرنسية؟

اجابت هاريت آلياً:

- يدعى الصالون.

ثم نظرت حولها واجمة. واردفت:

- سوزان. انتبهي اين تضعين قدميك. سمعت خشخشة عندما دخلت.

- لعلها فئران الحقل التي من عادتها احتلال البيوت المهجورة. اين الدرج؟

- اوه سوزان! لا اعرف!

تنهدت هاريت ثانية تنظر حولها حائرة ثم قالت حانقة:

- انها غلطتي وحدي. كان يجب ان اصر على معاينة هذا المكان قبل ان اصرف فلساً واحداً، انتظري ما سوف افعل بالسيد فروند عندما امسك به! لا اعتقد انه ذهب في حياته الى ابعد من جنوب اورليتز.

عادت سوزان الى المطبخ وقالت تواسيها:

- لماذا تغضبين هكذا يا هاري؟ هناك مقعدان لائقان في الداخل وطاولة زينة. لسنا في آخر الدنيا. اعتقد انه منزل رائع. يمكنك ان تشاهدي الحديقة خلف البيت، كما يوجد جدول...

فقاطعتها هاريت:

- اتصور انها مغمورة بالأعشاب البرية... ولا تناديني هاري!

ابتسمت سوزان ابنة الرابعة عشرة وقد بدا النمش واضحاً في شحوب وجهها، فالاسابيع القليلة الماضية سلبت لونها الشاحب اصلاً، وسر هاريت جداً ان تراها تبتسم هكذا. اذا كان البيت يثير فيها هذه الحماسة، لا يمكن ان يكون سيئاً الى هذا الحد.

وقالت سوزان تعلق على اعتراض خالتها السابق:

- انت لا تحبين ان اناديك خالتي هاريت، اليس كذلك؟

فانفرجت اسارير خالتها وقالت باسمة:

- هذا صحيح، انما افضل ان تناديني باسمي مجرداً. هاريت فقط.

- حسن، انت من اليوم فصاعداً هاريت فقط!

فضحكتا معاً واردفت سوزان بصوت مرتجف بعض الشيء:

- لنتكلم جدياً، البيت ليس سيئاً كما تتصورين. اني احبه وقد سئمت الأجواء الاخرى التقليدية.

تشاغلت هاريت بتفحص ما حولها لتعطي سوزان وقتاً تتغلب فيه على حزنها العابر... كانت هناك ابواب اخرى ففتحت احدها بوجل، وتنفست بارتياح حين رأت درجاً خشبياً يتعرج الى الطابق العلوي. اعلنت بجفاف وهي تصعد اول درجة:

- وجدت السلم!

كان بلا درابزين والدرجات عالية جداً، مما جعل هاريت تستبعد فكرة تغطيتها بالسجاد. لكنها كانت متينة على الأقل توصل الى شقة مربعة ذات سقف ينحدر بشدة في اتجاه نوافذ صغيرة فيما الأرضية الخشبية خشنة وغير متساوية. كانت هناك هيكلية سرير متداعية ودعاسة بالية، ومنضدة قديمة للاغتسال عليها طشت وابريق مشققان. رائحة الفاكهة الفاسدة كانت اقوى هنا، وحرارة الشمس تحرم الغرفة من الهواء وتلفها بجو خانق قابض للنفس.

وخيل الى هاريت ان النوافذ سليمة على الأقل، لكنها عندما حاولت فتحها استعصى عليها ذلك بسبب خشبها المتنفخ.

سوزان تبعتها الى فوق، وسمعتها تهتف ملهوفة:

- انظري! يوجد فراغ في السقف كأنه علية، وهناك باب خفي.

نظرت هاريت حولها بضيق وهي تلف شعرها الطويل الفاتح حول اذنيها بيد لا مبالية.

كانت سوزان تومىء الى فتحة مربعة في السقف المنخفض، فلمحت هاريت سلماً خشبياً مسنوداً على الحائط قرب السرير. تركت النافذة العنيدة واقتربت لتقف تحت الفتحة، لكنها قطعت على سوزان رغبتها في مواصلة الاستكشاف، اذ نظرت الى ساعتها وقالت:

- قاربت الساعة الخامسة الا ربعاً. اذا اردنا قضاء الليل هنا، وانا لست متأكدة من صواب ذلك، يجب ان ننشط لتنظيف الطابق السفلي وترتيبه.

حدقت اليها سوزان قائلة:

- هل تفكرين في الرحيل؟

فردت هاريت بهدوء:

- ليس هذا بالضبط. لكن عليك ان تعترفي بأن المكان ليس كما توقعنا ان يكون.

- لا يهمني.

- تقولين ذلك لأنك...

- بل اعني ما اقول، فهي مغامرة بالنسبة الي وقد نمت في اماكن اسوأ! يا آلهي، عندما ذهبت الى مخيم الكشافة..

فقاطعتها خالتها بحزم:

- انا لم انفق آلاف الفرنكات لأحصل على بيت كهذا لا يصلح الا كمضرب للخيام!

وحين رأت وجه سوزان يتقطب اضافت بسرعة:

- ربما استطعنا ان نفعل شيئاً بشأن البيت، لكن بالنسبة الى الليلة فيجب ان نجد نزلاً ننام فيه ريثما يتسنى لي الاتصال بالسيد فروند...

زمت سوزان شفتيها واعترضت بامتعاض:

- لكننا قررنا ان نخيم هنا! واحضرنا اكياس نومنا.

فقالت هاريت تذكرها وهي تشير الى خلف:

- كما تلاحظين يوجد سرير واحد ولا اسمح لكلب بأن ينام على ذلك الفراش. كما ان الهواء فاسد ويجب فتح النوافذ لمدة كافية.

تجاهلت نظرة الضياع التي ارتسمت في عيني سوزان، وهبطت السلم وهي تحدث فرقعة على الدرجات بنعليها المصنوعين من الفلين، ودخلت المطبخ حيث الهواء اكثر نقاوة.

لحقت بها سوزان وتفقدتا الغرفة معاً، وعادت هاريت تقول باصرار:

- يجب ان تعترفي بانه رهيب!

فأحنت سوزان كتفيها وسألت:

- اين ستمكث اذن؟ وماذا ستقولين عندما تكلمين السيد فروند؟

هزت هاريت رأسها فهي نفسها لا تعرف ماذا ستقول... هل تقدر ان تسترد منه بعض المال المدفوع؟ انها تشك في ذلك، اذ كان عليها ان تتفقد العقار قبل شرائه، ولا تسمح لنفسها بأن تنخدع بأساطير دعائية عن الكرمة والقصر، وامسيات الاسترخاء على ضفاف النهر وهي ترشف الشراب المثلج.

وقالت بصدق:

- لا اعرف الآن كيف سأتصرف.

لاحظت الغبار الذي لطخ قميصها وعبرت الغرفة بحذر على الأرض المليئة بالحفر، وخرجت الى ضوء الشمس تتنفس بعمق، ثم فكت زراً ثانياً اظهر عمق فتحة صدرها التي ما جرؤت على عرضها وهي في بلدها.

كانت السيارة متوقفة على الدرب وراء السياج الشائك المحيط بالحديقة، والهدوء شاملاً والوقت يؤذن بالغروب. ولدى اقترابها من ممر مظلل بالاشجار احست نشوة كالتي تحسها سوزان. ولكن حتى هذه الفسحة الامامية من الحديقة كانت تنبت فيها الأعشاب والشجيرات بفوضوية. وما بدا لها عملاً بسيطاً قبل هنيهة اتخذ الآن ابعاداً كبيرة. فجدران المنزل بحاجة الى طلاء اضافة الى التصليحات الاخرى، وما كان اغباها عندما سمحت للورد والمتسلقات ان يعميا بصرها عن هذا الواقع. اجل، لم تلحظ الاعشاب التي تصل حتى الركب، ولا الأشواك الخانقة او العليق المهدد بخدش الارجل.

وسألتها سوزان بلهفة وهي تدير المفتاح في القفل الصدىء:

ـ سنعود اليه، أليس كذلك؟

رمقتها خالتها بأسى وقالت:

ـ سنضطر الى ذلك على الارجح، او قد نعود الى بلدنا.

ارتجفت شفتا سوزان وقالت متوسلة:

ـ لن تفعلي ذلك... اقصد انه لا يجب ان تفعل ذلك...

قطبت هارييت باذعان وقالت موافقة:

ـ سنعود على الأرجح. هيا بنا. انا عطشى. هناك علبة من عصير الليمون في السيارة على ما اظن.

احست هارييت بمزيج من التعب والتشاؤم. كانت تقود السيارة منذ الصباح الباكر والشوق يحثها على الوصول الى وجهتها المنشودة، لكن كل آمالها فقدت رونقها، وحتى استياؤها من السيد فروند تحول الآن الى غضب على نفسها. متى ستتعلم ان الناس ليسوا دائماً كما يبدون؟

تقاسمت علبة العصير مع سوزان متظاهرة باهتمام لم تكن تشعر به اطلاقاً. استعانت بالخريطة التي فردتها على مقود السيارة وقالت وهي تشير بدقة الى مكانهما:

ـ نحن الآن على بعد ثلاثين كيلومتراً من بيناك واظنها اقرب مدينة الينا،

لكن القرية اقرب بالتأكيد وتدعى روشلاك هل علينا برأيك ان نحاول ايجاد مكان فيها؟

اجابتها سوزان:

ـ بكل تأكيد.

كان واضحاً انها تفضل البقاء قريباً من المنزل، والقرية لا تبعد عنه اكثر من ثلاثة او اربعة كيلومترات.

فردت هارييت مفكرة:

ـ قد لا نجد نزلاً هناك.

ـ لدي شعور اكيد باننا سنجد واحداً.

ـ واذا اتضح العكس، ماذا ستفعل؟

فهزت سوزان كتفيها وقالت:

ـ في هذه الحال سننام في السيارة.

واذعنت خالتها لمشيئتها...

عادت هارييت تقود السيارة على الطريق المشقوقة بين قريتي بلسوربو وروشلاك. واحست بشعور بسيط من الالفة تجاه روشلاك، هو الذي جذبها اليها بالدرجة الأولى، انما لم تستطع تحديد هذا الشعور.

وامكنها من الطريق ان ترى البيت المحاط بالأشجار وحتى رؤية سطحه القرميدي الرمادي وخلفه الجدول المتدفق. كان كل شيء يبدو ساحراً من بعيد، لكن ارهاق هارييت الشديد حال دون تقديرها لهذه الحسنات. اما سوزان فتطلعت اليه بحنين عبر كتفها لكن خالتها ضغطت بقوة على دعاسة الوقود فانطلقت سيارة الفيات الصغيرة تركض بها قدماً.

بدت روشلاك ملتصقة بجانب التل المطل على النهر والذي يتفرع منه الجدول المجاور للبيت المهجور. وخمنت هارييت ان السير الى القرية بمحاذاة النهر قد يكون اسرع من الوصول اليها بالسيارة، لكنها سرعان ما انصرفت عن هذه الفكرة المشجعة على البقاء، اذ اقنعت نفسها بانهما قد لا تعيشان فيه ولا حاجة اذن الى هذه الحسابات.

كانت القرية ذات جمال طبيعي رائع كما تمنتها ان تكون، طرقات ضيقة، شرفات تعج بالمتسلقات المزهرة، ساحة صغيرة وبرج عال. اوقفت السيارة امام حانوت لبيع الحلوى تنبعث منه رائحة خبز طازج تسيل

اللعاب، ثم اقفلت السيارة وسارت مع سوزان على الدرب الشديد الانحدار المرصوف بالحصى والمؤدي الى النهر.

البيوت على جانبي الطريق عالية ومتلاصقة كما لو انها تتزاحم على ايجاد فسحة فيما بينها، واسطحتها المنحدرة الرفيعة الرؤوس تبدو كالرماح على كتف الجبل الصخري، وذات نوافذ بارزة الى الخارج وبعضها مغطى بستائر ملونة من الكتان السميك لتحميها من تأثير الشمس المشعة على النهر الجاري بسلاسة وغموض.

وقفت سوزان على حافة الطريق ونظرت من فوق الى اعماق النهر. انضمت اليها هاريت وقد جذبها على التو مشهد مركب سياحي يتهادى عليه، فيها الركاب يغمسون ايديهم في مياهه الباردة.

ثم تنهدت بحسرة وقالت:

- هيا بنا، يجب ان نبحث عن مكان نمكث فيه.

وهتفت سوزان فجأة:

- اوه، انظري!

كانت تشير الى ما وراء القرية، الى ابراج قلعة او قصر تطل من فوق الاشجار التي تغطي واجهته.

لقد شاهدتا نماذج عديدة من هذا الفن المعماري في طريقهن الى روشلاك. وتوقفتا في بيناك لمشاهدة القصر الذي كان في يوم من الأيام معقل ميركاديه الرهيب. فأثناء حكم ريتشارد قلب الأسد، استبيحت ونهبت الضاحية حول بيناك حتى جاء سيمون دو مونفورت بنفسه وفرض هيبة الأمن في عام ١٢١٤. هذه الناحية من فرنسا كانت تعمها حكايات من هذا النوع، وتاريخها الجياش لم يكن الا جزءاً بسيطاً من جاذبيتها.

سألتها سوزان بفضول:

- هل تظنين ان احداً يسكن هنا؟

لكن هاريت هزت رأسها، فعلقت الصغيرة:

- اني اشاطرك تخمينك، لنتمشى الى الساحة مرة ثانية، فلا توجد هنا فنادق او بانسيونات.

وظهر ان هذه القرية لا يوجد فيها استعدادات لاستقبال السياح، وصاحب المقهى الوحيد اوضح انهم لا يستقبلونَ زواراً كثيرين. ولحسن

الحظ كانت هاريت طلقة اللسان بالفرنسية، لأن عملها كان قد جاء بها اكثر من مرة الى فرنسا، ولذا علمت ان صاحب المقهى يعرف عدداً قليلاً من الكلمات بالانكليزية.

وسألت هاريت وهي تحاول اخفاء نفاد صبرها:

- وماذا الآن؟ لا اجد فكرة العودة الى بيناك مستحبة.

فقطبت سوزان وخاطبت صاحب المقهى قائلة:

- هل تعرف احداً يمكنه استضافتنا هذه الليلة؟

عبس الرجل وغاص في خطاب طويل لم تفهم سوزان منه الا القليل ما عدا كلمة قصر. وادارت عينيها المرتبكتين نحو هاريت التي حزنت عليها واوضحت كلام الرجل بقولها:

- ماكون اي صاحب المقهى كان يؤمن متطلبات القصر، ويقول انه ما عدا القصر لا توجد بيوت تستطيع استضافة الزوار.

- هل القصر فندق؟

سألت سوزان بحماسة لأنها وجدت فكرة قضاء الليلة في قصر من العصور الوسطى شيقة جداً، لكن هاريت خيبت املها سريعاً وقالت:

- يبدو ان لا احد يعيش في القصر هذه الأيام، اذ لم يستطع المالك تأمين تكاليف الصيانة فأخذ القصر يتداعى كغيره من القصور. انتظري قليلاً.

قيلت هذه الجملة بحرارة شديدة جعلت السيد ماكون وسوزان ينظران بدهشة الى هاريت التي قفزت من مكانها، وراحت تقول:

- سيد ماكون، هل القصر جزء من الممتلكات؟ هل الذي يملك الأراضي يملك المزارع المحيطة بها؟

تعجب الرجل كأنه صدم من السؤال الذي لم يعجبه لكونها تخطت حدود التطفل، فرفع جسمه المسترخي عن المقعد وقال بصوت متشنج:

- ذلك ممكن ايتها الآنسة، والآن اسمحا لي بالانصراف.

فقلصت هاريت قبضتيها وسألته بتوسل:

- لحظة من فضلك، هناك شيء آخر، من يملك القصر؟

مسد صاحب المقهى صدريته، وسأل بتهرب:

- لماذا تريدين ان تعرفي؟

التفتت هاريت الى سوزان ثم قالت للرجل بتردد:

- انا في الواقع، اقصد اني . . . اشتريت عقاراً يبعد بضعة كيلومترات من هنا، واتساءل من يملك هذا القصر. اشتريت العقار بواسطة وكيل في باريس.

نظر اليها مرتاباً وقال:

- ولكنك سألت عن مكان تمضيان فيه الليل؟

تمكنت هاربيت من كبت الغيظ الذي كان ينبعث من كل جزء فيها وقالت:

- المنزل يحتاج الى تهوية وتنظيف.

لكنها ايقنت ان السيد ماكون لم يكن مقتنعاً بما تقول.

التفت الرجل حوله بريبة كأنه يأمل ان يجد زبوناً آخر ليمنحه كل اهتمامه. ولكن المقهى الصغير كان مقفراً في هذا الوقت من النهار.

وحزرت هاربيت انه كان يتمنى لو اقفل باكراً ليتجنب الرد على مثل هذا السؤال.

وحثته هاربيت سائلة:

- على الأقل، ما اسم هذا القصر؟

استنتجت انه مهما كان اسم القصر فلا بد ان صاحبه يحمل الاسم نفسه.

- انه قصر روش فورت ايتها الآنسة. اي شخص يستطيع ان يقول لك ذلك.

- شكراً.

لملمت هاربيت حقيبتها وخريطتها التي كانت تحملها وغادرت المقهى بصحبة سوزان التي سألتها حالما اصبحتا بعيدتين عن مسمع الرجل:

- علام كان كل هذا الجدل؟ ماذا يهمك من يملك القصر؟

ابتسمت هاربيت بداخلها وقالت لها:

- الأمر واضح وحسبتك حزرت الحقيقة.

ظهرت العصبية على سوزان، فخاطبتها هاربيت قائلة:

- الا ترين؟ ان السيد فروند يمثل المالك، والبيت الذي ابتعناه ربما كان ملك الكونت دو روش فورت، اذا كان يدعى كذلك.

انفرج وجه سوزان وهتفت:

- فهمت. تعنين انه قد يتوجب علينا التكلم مع المالك. أليس كذلك؟

- شيء من هذا القبيل.

- ولكن متى؟ الآن؟

- يا الهي، كلا.

ثم نظرت هاربيت الى ساعتها، وهزت رأسها قائلة:

- الساعة تقارب السادسة. لا جدوى من ان نحاول ايجاد طريقنا الليلة، والا تهنا. يجب ان نترك هذا العمل الى الغد.

وسألتها سوزان:

- وما العمل الآن؟

ابتسمت هاربيت ابتسامة صفراء وهي تنظر الى سوزان قائلة:

- انني امقت الفكرة، لكن يجب ان نعود ادارجنا.

- الى البيت؟

بدت سوزان في غاية الفرح واللهفة فأجابت هاربيت بجفاف:

- نعم الى المنزل، ولكن اقترح ان نبتاع بعض الاشياء قبل ان نذهب، مثل مبيدات للجرذان ومساحيق للتنظيف.

كانت السيارة محملة بالأغذية الكافية لاسبوع واحد. ولكن هاربيت اضافت علبة من الحليب وكمية من البيض وذلك من باب الاحتياط.

وقالت لسوزان عندما لاحظت الابتسامة العنيدة على محياها:

- آمل الا تظني انها ستكون نزهة.

فقهقهت سوزان ضاحكة لتعليق خالتها وردت:

- لا احسبك آسفة كلياً للعودة الى البيت كما تحاولين ان تظهري.

لم تستطع سوزان اخفاء نشوتها عندما انطلقت بهما سيارة الفيات الصغيرة على الطريق المتعرج بين الاشجار، بينما الشمس تغيب وتضفي بريقاً على قرميد البيوت وهي تسدل وشاحاً من الظل على الجدران المشققة كأنها خليلة في الغروب تخفي شوائبها.

وعندما اوقفت هاربيت سيارتها امام البيت ورأت دخاناً يتصاعد من المدخنة ارتجف قلبها بقوة اذ جالت في خاطرها قصص الاشباح والأساطير التي سمعتها.

وصرخت سوزان:

- هناك دخان يتصاعد من المدخنة! هاريت، نحن لم نضرم النار في الموقد!

نظرة واحدة الى وجه الفتاة كانت كافية لتعيد الرشد الى هاريت التي رددت:

- كلا، لم نضرم النار في الموقد.

فتحت الباب وترجلت برباطة جأش اذهلتها. مع العلم ان ساقيها كانت ترتجفان وهي تقطع الممر القصير المعشوشب الذي يقود الى المدخل. وانقبض قلبها في صدرها عندما ظهر شخص طويل القامة امامها لم تستطع تمييز ملامح وجهه لأن شعاع الشمس كان يبهر نظرها. توقفت بتردد، متسائلة ان كان هذا الرجل متشرداً او متطفلاً. تساءلت ان كان شرساً، وعندئذ تكلم فأحست العالم المحيط بها يتبخر!

وهتف الرجل غير مصدق ما يرى:

- هاريت! يا الهي، احقاً انت هاريت بنفسها؟

٢- جرح يستيقظ؟

تجمّدت هاريت في مكانها. احسّت ان سوزان قد لحقت بها واصبحت وراءها واحسّتها تلمس ذراعها وهي تسألها هامسة:

- من هذا يا هاريت، هل تعرفينه؟

لكن هاريت لم تجب، كانت مصعوقة، مرتبكة، فاقدة تماماً امكانية استعمال اوتارها الصوتية لتسمح لكلمة ما بأن تخرج وتعبّر للرجل عما يجيش في نفسها. هل تعرفه؟ وفكرت منذهلة، هل عرفته؟ ليتها لم تعرفه. ليتها لم تلتق به ابداً... ولكن كل هذا لم يفسّر ماذا كان يفعل هنا.

أراحها الضغط على حقيبتها، ولما زال وهج النور الذي يغشي بصرها، تمكنت من رؤيته جلياً... لو لم يتعرف اليها بسرعة هل كان بمقدورها التعرف اليه؟ طردت هذه الفكرة من رأسها لأنها غير جديرة بذكائها. طبعاً كانت ستعرفه. لم يتغير كثيراً، ربما اصبح نحيلاً، لذلك بدت الخطوط عميقة في وجهه، وفي شعره خصل بيضاء لم تعهد كثرتها من قبل. لقد مضت ثماني سنوات على فراقهما واصبح الآن في الأربعين أو أكثر. وها هو السواد يغلب على لون شعره الذي انسدل على ياقة قميصه ذي القماش الخشن. كان ينظف الموقد على ما يظهر، لأن ذراعيه بدتا مسودتين بغبار الفحم لذلك لم يحاول لمسها، لكنه نظر اليها بعينيه السوداوين اللتين ما نسيتهما ابداً. قال:

- هاريت، لم اعرف انك أنت!

- ماذا كنت من قبل؟

خرجت الكلمات متقطعة حادة، لا تشبه ابداً صوتها المبحوح. نظر

اليها بغرابة واوضح قائلاً:

- لم ادرك انك انت التي اشتريت البيت، ماذا تظنين انني قصدت؟

آثرت هاريت ان لا تجيب، والتفتت الى سوزان بقلق وقدمتها بصوت خافت:

- انه السيد لاروش يا سوزان. لقد التقينا منذ سنوات في باريس في مزاد علني.

ما قالته كان اخفاء للحقيقة، وخشيت ان يفضح الأمر، لكنها خمنت انه لن يفعل ذلك.

قال للفتاة وهو يحني رأسه بتهذيب:

- كيف حالك يا سوزان؟ المعذرة، لم استطع مصافحتك.

ومد لها يديه المتسختين.

ابتسمت سوزان قليلاً، ونظرت الى هاريت كأنها تطلب الارشاد، فتنحنحت خالتها وقالت:

- حتى الآن لم توضح سبب وجودك هنا يا سيدي.

نطقت هذه العبارة بقسوة، مع انها كانت متضايقة من قوة نظرته اليها. اجابها:

- حسبتك تعلمين. يجب اذن ان أقدم اعتذاري عن حالة البيت المزرية، لكن حتى يوم امس لم اعرف ان السيد فروند قد وجد شارياً للبيت.

نظرت اليه هاريت بهلع وهتفت:

- هل تقصد انك المستأجر القديم؟

- هذا صحيح.

كان من الصعب عليها تصديق ذلك لكن كل شيء لا يصدّق. حتى لاروش نفسه يبدو مختلفاً جداً عن الرجل الأنيق المتحضر الذي التقته في صالات سان جرمان في باريس. كان يرتدي آنذاك ثياباً أنيقة ونظيفة، مفصلة بعناية لتظهر نحول جسمه. انما الآن يجب ان تأخذ بعين الاعتبار انه كان ينظف الموقد. لكن القميص الذي يرتديه مصنوع من قماش خشن، اما بنطلون الجينز الملتصق بعضلاته القوية فيبدو رثاً وعتيقاً.

سألته بصوت خافت، وهي تحس اشمئزازاً وامتعاضاً تجاه المكان:

- هل تسكن هنا؟

فهزّ رأسه وقال مفسراً:

- كلا، لم أقل ذلك. انا اسكن . . . على بعد بضعة كيلومترات من هذا المكان. وعندما علمت من السيد فروند انه باع البيت، تيقنت انه يجهل حالة المنزل.

تنهدت هاريت وقالت:

- فهمت.

صوت فرقعة من الداخل جعل الرجل يستدير، فاستأذن منها ودخل ليهتم بالحطب الذي كان يحترق متأججاً في الموقد. تبادلت هاريت مع سوزان نظرات المغلوب على أمره، ثم تبعته الى الداخل.

بدت الغرفة أصغر حجماً بوجوده بجانب المدفأة، انما لاحظت ان النفايات قد نظفت، وان شبه محاولة قد تمّت لتنظيف الطاولة والكراسي.

سألته وهي لا تصدق ما ترى:

- هل انت الذي فعل ذلك؟

فأومأ بالايجاب وقال وهو يكدس مزيداً من الحطب:

- كنست الطابق الأعلى مساء امس لكنني لم اجد متسعاً من الوقت لاكمال كل شيء. ان كل شيء بدائي هنا كما ترين.

تريث قليلاً، وعندما لم تبد ملاحظة وقف واستدار اليها قائلاً:

- بامكانكما تفقد المكان. واذا تبينّ لكما ان البيت ليس كما وصفه السيد فروند، فلا استطيع ان ألومه، لكنني سأطلب منه ان يعيد لكما الثمن حالاً.

تطلعت سوزان بقلق نحو خالتها. كانت لغة لاروش الانكليزية أحسن بكثير من لغة هاريت بالفرنسية. ولم يكن هنالك مجال للالتباس.

واعترفت هاريت بتردد:

- في الواقع أتينا الى هنا باكراً وتفقدنا المكان حينئذ

- آه.

لم يبد عليه الاستغراب وأردف:

- اذكر انني لم أقفل الباب.

فشهقت هاريت وسألته مندهشة:

- وهل لديك مفتاح؟
اخذت عضلات وجهه تتقلص وأجاب:
- بالتأكيد. قلت لك انني لم اعلم ان السيد فروند قد باع البيت.
- حسناً، اذا كنا سنبقى هنا فأنتظر منك ان تعطيني المفتاح.
تحرك فمه كأنه يهزأ بها وقال:
- بالطبع.
أحست هاريت باحمرار وجهها وانتبهت الى فتحة قميصها وشكلها المشعث، فحتى تلك اللحظة كانت مشدودة الى مظهره فلم تبال بمظهرها.

ارتفعت اصابعها بطريقة آلية لتقفل زرّ قميصها. وكأن الرجل أحس بحرجها فأدار وجهه لتفقّد النار. كانت خيالات الغسق تعتم الممر في الخارج فبدت النار فرحة ومشعّة، وانعكاس الشمس الغائبة أضفى على الغرفة سحراً غريباً.

ظنّت هاريت انه بعد تنظيف البيت وطلاء الجدران سيتحسن منظره ولكن البيت لم يعد المشكلة بل الرجل الذي يقف قرب المدفأة أصبح هو العقبة.

شدت سوزان كمّ قميص خالتها وسألتها بلوعة:
- سنبقى هنا، أليس كذلك؟
فبدرت عن هاريت حركة توحي بنفاد صبرها وقالت:
- ارجوك، لا تضايقيني!

كانت سوزان مصممة على البقاء لكن هاريت رفضت الابتزاز. صحيح انها هي التي اقترحت ان تصطحب ابنة اختها لبضعة أشهر لتشفيها من صدمة موت والديها، لكن اذا كان السيد فروند مستعداً لاعادة المبلغ اليها، فلا يوجد سبب يمنعها من شراء بيت أو كوخ في مكان آخر من البلاد. الا انها تحب منذ زمان هذه المنطقة، وتريد البقاء فيها.

لكن كل هذا كان قبل ان تعرف من سيكون جارها. كيف تستطيع ان تمكث هنا، على رمية حجر منه ومن عائلته؟ كيف تستطيع ان تتحمل فكرة لقائه في أي وقت... او التقائها بزوجته؟ ربما وجودها هنا سيعتبره دعوة مفتوحة ليجدد العلاقة التي كانت بينهما، وهي لن تدعه يفعل ذلك ابداً!! ان وجوده هنا اذهلها، وتساءلت منذ متى اصبح يقوم بأعمال يدوية؟

وقال فجأة:
- اخيراً تبدو النار متقدة كما يجب!
تقدم من المغسلة ليغسل يديه المتسختين ثم سأل:
- هل تنويان قضاء الليل هنا؟
لفّت هاريت حمّالة حقيبتها حول معصمها، وردّت باختصار:
- أجل، لقد ذهبنا الى القرية بحثاً عن نزل، لكن صاحب المقهى المدعو ماكون قال لنا انه لا توجد بانسيونات في هذه الناحية.
- هذا صحيح، مع العلم ان شركة اميركية رغبت مؤخراً في شراء القصر وتحويله الى فندق من الدرجة الاولى.
- قصر روشفورت؟
فقطب حاجبيه وسألها:
- هل ذهبت الى هناك؟
قالت وهي تهزّ رأسها:
- كلا، مجرد فكرة... لا يهم.
نظرت هاريت الى سوزان ثم اضافت:
- ربما نعلمك غداً اذا كنّا سنبقى... الوقت اصبح متأخراً، ونحسّ بالجوع.

نشف يديه بمنديل سحبه من جيب بنطلونه. لم يكن المنديل جديداً لكنه نظيف للغاية. ووجدت نفسها تتساءل عن حقيقة مكانته. ان حالته تحيّر، حتى لو كان يستحق العقاب.

قال وهو يضع المنديل في جيبه:
- كيف ستنامان؟ ان السرير الموجود فوق لا يصلح.
- لا اعتقد ان هذا الأمر يهمك، يا سيد لاروش.
قالت ذلك ببرود جعل وجهه يحمر قليلاً. فأجاب بهدوء:
- لم أقصد التطفّل.
احسّت هاريت باللوم وقبل ان تكمل اضاف:
- اذا قررتما البقاء، سآتي لكما بسريرين عوضاً عن الذي فوق والذي يجب ان يتلف.
لم تشكره هاريت، فالبيت بيع مؤثثاً ولا جدال حول ضرورة وجود

سرير فيه.
وسألت سوزان فجأة:
- اين الطباخ؟
أجاب لاروش:
- لسنين خلت كان الفرن الوحيد المجاور للموقد الطباخ الوحيد، لكننا زودنا المستأجرين القدامى بفرن على الغاز. مع الأسف نقلته منذ اشهر الى القصر وسوف ارسله اليكما اذا آثرتما البقاء.
تنهدت هاريت وقالت:
- وكيف تستطيع تحضير شراب ساخن؟
فدلها على ابريق حديدي قرب الموقد وقال معتذراً:
- آسف، عليك ان تغلي الماء في هذا الوعاء الليلة.
توقف قليلاً وكأن عينيه تبحثان عن شيء في وجه هاريت، ثم اضاف:
- ما لم تودي ان تنضمي الى العائلة لتناول العشاء.
فأشاحت عنه بانفعال وقرف. كيف يجرؤ؟ كيف يستطيع ان يدعوها الى تناول العشاء والجلوس الى الطاولة نفسها مع زوجته وعائلته مع علمه بعلاقتهما... السابقة؟
كادت تختنق وهي ترفض دعوته. فحرك منكبيه ودلّت هذه الحركة على أصله الغاليكاني وقال:
- كما تشائين.
وتقدّم نحو الباب متابعاً:
- سأعود في الصباح لأعرف قراركما.
ثم اشار الى القنديل المتدلي من السقف وقال:
- يوجد زيت في داخله، هل تستطيعين اضاءته؟
انتصبت هاريت وقالت:
- اظن ذلك يا سيدي، تصبح على خير.
اجاب بتهذيب:
- وانت من اهل الخير.
حيا سوزان بابتسامة صغيرة ثم تركهما وذهب عبر الممر.
انتظرت هاريت حتى وصل الدرب، فأسرعت الى النافذة، وهي

تسكت سوزان التي حاولت الكلام، واخذت تراقب الطريق الذي سيسلكه.
انعطف الى الطريق الممتدة بين بلسوربو وروشلاك، ودخل بين مجموعة الاشجار التي تحدّ الجدول. اكد بذلك نظرية هاريت بان هذا الممر يقود الى القرية. انتظرت حتى غاب عن النظر واتكأت على الحائط ويدها تضغط على شريان عنقها المتغضن. نظرت اليها سوزان لثوان ثم سألت بصبر نافذ:
- من هو؟ ماذا يجري هنا؟
انتصبت هاريت وهي تهز رأسها:
- قلت لك ... هو... انا... لقد التقينا منذ بضع سنوات في باريس.
- هل هو تاجر تحف قديمة ايضاً؟
- لا اعرف.
- لكنك قلت انك التقيته في مزاد علني!
- اجل.
ثم ضربت هاريت يدها في الهواء واردفت بحزم:
- اسمعي، لا وقت لدينا للحديث عن هذا الموضوع. ستظلم قريباً وعلينا ان نفرغ السيارة.
نظرت اليها سوزان بحرد وقالت:
- لا تستطيعين التخلص بهذه السهولة، انت لم تلتقيه مرة واحدة فقط. انا لست بطفلة، ويبدو لي ان معرفتكما قامت على عدة لقاءات.
- اوه، كفى يا سوزان...
وخرجت هاريت من البيت.
وألحّت سوزان وهي تلحق بخالتها:
- حسناً! ما الخطأ الذي حدث بعد ذلك؟ اقصد انه جذاب وقد ذكرني بساشا دي ستيل.
قالت هاريت غاضبة:
- يا الهي، لا يشبه ساشا دي ستيل ابداً! هل ستساعدينني في نقل الحاجيات الى الداخل ام لا؟

حملت سوزان صندوق المأكولات واستفسرت بعفوية:

- هل كانت لك علاقة غرامية به؟

وللحظة لم تستطع هارييت الكلام لأن السؤال صعقها فأكملت سوزان حديثها وهي تحمل المأكولات الى المطبخ:

- انه شيء طبيعي. انني اعرف فتيات في عمري و. . .

قاطعتها هارييت قائلة:

- افضل ان لا اتحدث بهذا الموضوع.

وضعت هارييت اكياس النوم على الطاولة وتابعت قائلة:

- هل تفضلين الشاي ام القهوة؟ انا لا فرق عندي بين الاثنين.

فهتفت سوزان وهي تنظر اليها بتوسل:

- اخبريني اسمه على الأقل.

تنهدت هارييت وردت بسؤال:

- لماذا؟

- اريد ان اعرف فقط ، وسوف اتوقف عن الأسئلة اذا اجبت بصراحة.

- احقاً ستتوقفين؟

- نعم، نعم اعدك بذلك.

انحنت هارييت فوق الاغراض وقالت:

- اسمه اندريه. اندريه لاروش. والآن، هل يمكن ان نقوم ببعض الأعمال؟

كان الماء يغلي في الابريق المنظف، واللحوم الباردة والجبنة والخبز المقمر الطازج اشهى ما يمكن مع القهوة الساخنة. كان الباب موصداً على سواد الليل، وضوء القنديل يبعث الدفء.

قالت هارييت:

- لم تجرب محاسن الاغتسال بالماء البارد، وتذكري انه لا يوجد حمام هل لاحظت التواليت وأنت تمرين بالجدول؟

اومأت سوزان قائلة:

- انه وراء الباب الخلفي مباشرة.

فقالت هارييت:

- سوف نستعمل الكيماويات. . .

ثم زمت شفتيها قرفاً وتابعت:

- لا استطيع ان الوم احداً على ذلك. كنت اعرف ان التسهيلات غير مشابهة لما اعتدنا عليه ولكن. . .

قاطعتها سوزان قائلة:

- سنبقى هنا أليس كذلك، انه ليس سيئاً كما توقعناه. واذا امن لنا اندريه لاروش سريرين. . .

- السيد لاروش من فضلك.

قاطعتها هارييت بحدة وتابعت قائلة:

- لا اعرف ماذا سأفعل. اذا اعاد لي السيد لاروش المبلغ، من المستحسن ان استعيد دراهمي.

فشهقت سوزان وقالت بانفعال:

- اوه، كلا!

بسطت هارييت يديها كأنها لا تستطيع فعل شيء وقالت:

- يمكنني شراء بيت آخر، وفي مكان اقل وحشة من هذا.

- لكنني احب هذا المكان!

هتفت سوزان وهي ترفع شعرها عن جبينها وبدت في هذه اللحظة تشبه والدتها كثيراً.

صوفي والدة الفتاة كانت ذات شعر احمر وعينين زرقاوين ورثتهما ابنتها سوزان، مع العلم ان شعر سوزان اكثر شقرة، ولم تكن لديها المشاكل الجلدية نفسها التي كانت والدتها تعاني منها. اما هارييت فعيناها بنيتان واقوى من عيني سوزان التي تشكو من قصر النظر. تأثرت هارييت لذكرى شقيقتها وترددت مع ان كل شيء في داخلها كان يحثها على ترك البيت ما دامت الظروف تسمح بذلك، وتفضل الابتعاد عن روشلاك قبل ان تزج في وضع تندم عليه.

- سوزان. . . سوزان.

قالت مسايرة، لكن ابنة اختها كانت لها قوة ابيها نفسها فواجهت خالتها بعناد وقالت:

- وعدت بأن نبقى هنا. كنت دائماً تقولين انك تودين الاقامة في وادي

دوردون لتستكشفي القصور والكهوف، اما الآن فأنت تغيرين رأيك. وكل ذلك من اجل هذا الرجل!

ـ هذا ليس صحيحاً!

احمرت وجنتا هاربيت وتابعت:

ـ تعلمين يا سوزان ان المكان لم يعجبني عندما رأيته.

ـ لكنك كنت ستبقين، وكنا سنحاول تحسين الوضع. ذلك حتى اللحظة التي التقيت فيها اندريه لاروش!

ـ سوزان!

ـ لا اصدق انك لا تحبين هذا البيت. باستطاعتنا تحويله الى جنة، وانت تعلمين ذلك. ماذا حدث؟ هل تركك او حصل شيء من هذا القبيل؟ الذلك انت عانس في السادسة والعشرين؟

حالما انهت سوزان كلامها، ندمت على ما قالته فوضعت رأسها على ذراعيها المطويتين واجهشت بالبكاء، كأنها مكسورة القلب. تركتها هاربيت تبكي لفترة وجيزة لأنها ايقنت ان هناك اسباباً اخرى غير خيبة الأمل التي جعلتها تذرف الدموع.

لم تشف بعد من صدمة وفاة والديها بحادث سيارات جماعي منذ ستة اسابيع. وكانت هاربيت مخطئة في تفكيرها اذ اعتقدت انها تستطيع تحوير افكار الطفلة حينما يطيب لها. بالنتيجة ربما التقت باندريه في اي وقت وفي عدة اماكن تجري فيها مزادات علنية في انحاء فرنسا. ربما كانت فكرة صائبة ان تخرج طيفه من حياتها لآخر مرة، على ان العلاقة التي كانت بينهما في تلك الحقبة من حياتها اثرت على كل علاقاتها اللاحقة. ولم تكن سوزان مخطئة عندما اتهمتها انها عانس. فالرجل الوحيد الذي دخل حياتها بعد اندريه هو تشارلز ولم يكن بينهما الا حبهما المشترك للأثريات.

نهضت من مكانها وتقدمت نحو الفتاة واحتضنتها. اعتذرت سوزان بصوت خافت واسندت وجهها اليها وهي تشهق باحثة عن منديلها. كانت العاصفة قد هدأت فنظرت الى خالتها بسذاجة وقالت:

ـ آسفة.

قالت هاربيت بمرح:

ـ لا تكوني سخيفة، لست غاضبة وربما انت على حق فأنا عانس

بالفعل.

ـ كلا، لست بعانس يا خالتي. كل ما في الأمر انك تكرسين وقتك لعملك. صديقاتي يقلن انك لبقة وثيابك دائماً في غاية الاناقة. انت لا تشبهين امي، اقصد... لم تبدي اهتماماً بالزواج ولا بانشاء عائلة، اليس كذلك؟ ولكني اعتقد انك عرفت عدداً كبيراً من الرجال...

ـ انك تظهرينني كامرأة قاسية انانية!

كانت هاربيت تبتسم وهي تجيب لتخفف الألم الذي احدثه كلام الفتاة. لو علمت سوزان بالمرارة التي تشعر بها خالتها!

قالت سوزان:

ـ انا ايضاً اود ان اكون مثلك. لا اريد الزواج من احد حتى اصبح في الثلاثين من عمري. اريد ان تكون لدي مهنة.

استدارت هاربيت لتأخذ الأكواب الفارغة وتضعها على المجلى. في الخارج اصبح السواد دامساً، والحشرات التي يجذبها النور كانت تصطدم بزجاج النافذة الملطخ. من فترة وجيزة كانت هاربيت قد وضعت مكان الزجاج المكسور نوعاً من الكرتون على النوافذ. والآن عندما رأت الحشرات والبعوض تحاول ان تعبر الى داخل المنزل فرحت لما فعلت، فهي لا تحب الحشرات على انواعها.

سألتها سوزان وقد قررت ان تترك للغد استيضاح هاربيت حول بقائها او عدمه:

ـ اين سننام؟

ـ هنا على ما اظن فالهواء في غرفة الجلوس يبدو رطباً، والافضل ان تكون الحجرة نظيفة قبل ان نستعملها.

ـ حسناً.

استعادت سوزان رباطة جأشها السابقة واخذت تفرش اكياس النوم قرب النار. واستأذنت خالتها قائلة:

ـ هل بامكاني تأجيل الحمام الى صباح غد؟ اني اشعر بالنعاس الشديد.

ـ حسناً.

فقالت سوزان باسمة:

ـ لكنني سأذهب الى التواليت قبلك لأتأكد انه خال من الحشرات التي

تكرهين!

عندما عادت هارييت الى البيت سمعت نعيق بوم، فكتمت ضحكة هستيرية كانت على وشك ان تخرج من اعماقها. لماذا لم تتصور كيف يصبح المكان في الظلام؟ واقفلت الباب وهي تشعر بشيء من الاطمئنان.

ومع انها كانت منهوكة القوى، الا انها لم تستطع النوم جيداً لان أموراً كثيرة جالت بخاطرها، ولا سيما القرار الذي ستتخذه في اليوم التالي. اما سوزان فكانت تنعم بنوم هادىء عميق فحسدتها لأنها تستطيع ترك مشاكلها تحل نفسها بنفسها.

فكرت هارييت بالوضع الذي تعانيه. ماذا ستفعل، علماً ان سوزان ستكون بغاية التعاسة اذا باعت البيت، وكم سيستغرق ايجاد مكان آخر حتى لو توفر لها المال؟ في كل حال، لقد منحها تشارلز عطلة شهرين فقط كما على سوزان ان تعود الى المدرسة في شهر سبتمبر/ ايلول.

لا حل لها الا البقاء هنا حتى لو لم تحب هذا التدبير. انها ثمانية اشهر فقط، ومتى استتب بها المقام بطريقة مرضية، فلا حاجة لها لأن تريا اندريه لاروش، فهما لا تدفعان ايجاراً لتضطرا الى رؤيته، ولا شك ان زوجته ستسارع الى الاعتراض اذا بدأ يتردد عليهما بكثرة. . . هل هي غير واثقة من نفسها ومن مشاعرها الى حد الاستسلام الى فكرة الهرب الجبانة؟ ان الماضي مات، والألم الذي تحسه ناتج عن جرح قديم فتحته فجأة يد ثقيلة قاسية. فكل جرح يتعرض للهواء قد يتأخر شفاؤه، لكن ليس من شيء يقنعها بأنها ستتخلى يوماً عن احساسها بالكره والاحتقار تجاه الرجل الذي ايقظها بقسوة على حقائق الحياة.

٣- لماذا نام الحب؟

استيقظت هارييت على صوت الماء الذي كانت سوزان تعبّئه في الابريق، وقد تمكنت من تحريك الجمر دون ان تحدث صوتاً يزعج خالتها، ثم أضافت بعض الأغصان اليابسة وبعض قطع الكرتون من بقايا العلب التي كانت تحتوي المأكولات، ونجحت في ايقاد النار لتغلي الماء المطلوب للافطار.

تحركت هارييت في نومها، وأحست انها مرتاحة برغم تشنج ظهرها. في الخارج، كانت الطيور تغرّد ورائحة البراعم تفعم الجو بالعبير. كل شيء أصبح اكثر اشراقاً مما كان يبدو في الظلام، مع ان اشعة الشمس التي تسللت عبر النوافذ الملطخة كانت تضيء عيوب الغرفة.

نامت هارييت بثيابها، والآن عندما خرجت من كيس النوم، أحست بالحرارة والعرق وتذكرت ما قالته عنها سوزان في الليلة الماضية بأنها عانس. هذا التشبيه بدا أصح في تلك اللحظة لأن منظرها يوحي بذلك.

سألتها سوزان وهي تضع الابريق فوق النار:

ـ هل قضيت ليلة مريحة؟

فلم تبح لها هارييت بأنها لم تغمض عينيها قبل ساعات الفجر الاولى.
وسألتها بدورها:

ـ وأنت؟

ثم نهضت وأخذت تطوي كيس النوم فأومأت سوزان بحماسة وقالت:

ـ نمت كقطعة خشب، وربما بتأثير المناخ.

ثم ملأت صدرها بالهواء النقي وتابعت قائلة:

- أليس الصباح الريفي ساحراً؟

لفت هاريت كيس النوم ووضعته على الطاولة وقالت متسائلة:

- أتظنين ان الجدول ضحل؟

فردت سوزان بلهفة:

- جدولنا؟ لا أظنه عميقاً جداً اذا كان هذا ما تقصدين.

فعبست هاريت قائلة:

- هل بامكاني ان اغتسل فيه؟ أحس انني متسخة، وبحاجة الى حمام جيد قبل ان أبدّل ثيابي.

أجابت سوزان:

- سأذهب لاستطلع اذا أردت.

- كلا، لا تتعبي نفسك، سأذهب أنا. هل اخرجنا المناشف من الحقيبة ليلة امس؟

فتحت هاريت الباب وخرجت الى الحديقة وهي تحمل الفرشاة ومعجون الأسنان والصابون والمنشفة. كانت الحديقة الخلفية كالتي امام البيت، تعجّ بالأعشاب والشجيرات العالية. وفيما هاريت تشق طريقها، رأت حديقة حشائش تنبعث منها رائحة النعناع واكليل الجبل.

كان الغدير صافياً سريع الجريان وخطر لها ان تذوق طعم الماء ثم عدلت عن الفكرة لأنها لا تريد ان تجازف. خلعت حذاءها وغطست قدميها في الماء المثلج وهي تبتسم لأن برودة الماء دغدغت اصابعها. في أسفل المجرى تجويف في الصخر تحوّل الى بركة ماء صغيرة. وتمنّت هاريت لو تستطيع تغطيس جسمها الدبق فيها. لا بأس بالاغتسال، لكنه لا يشبه الاستحمام الكامل، وبعد التأكد من خلاء المكان نزعت قميصها وبنطلونها، وغطست في الجدول. جلست على القاع الرملي، فأخذ الماء ينساب من حولها وهي ترغي الصابون بلذة كالأطفال.

في شقتها بلندن حمام كبير وعصري يحتوي كل متطلبات الراحة، ولذا نسيت مع الوقت كيف تستمتع بمباهج الحياة البسيطة. حتى منزل والديها في ساري كان مزوّداً بجميع اسباب الراحة من تدفئة مركزية وآلات غسيل. لكن الجلوس هنا جعلها تحس باللذة التي تفتقدها. وبحركات رشيقة جففت جسمها بالمنشفة لتعيد اليه بعض الدفء ولبست بنطلونها

وقميصها وركضت نحو البيت. لم تبال بتزرير ثيابها لأنها كان تزمع تبديلها في البيت. ووصلته ملهوفة ومصممة على ان تخبر سوزان ما حدث. رأت اندريه لاروش متكئاً على المجلى، يحادث سوزان وهي تضع الزبدة على الخبز المحمص. اهتزت ولفّت نفسها بالمنشفة المبللة. تساءلت بانزعاج من أين أتى، وان كان قد شاهدها وهي تستحم في الغدير. وربما خرير الماء منعها من سماع وقع خطاه. لم تحتمل فكرة رؤيته لها وهي تأخذ حمامها المرتجل.

- صباح الخير.

انتصب يحييها بتهذيب، لكنها لحظت نظرته المتسائلة وضمّت المنشفة حولها.

هل في نبرة صوته سخرية مبطنة ام هي تصورتها فقط؟ تجاهلت تحيته وقالت بجفاف:

- لقد بكرت في زيارتنا، فالساعة بالكاد تناهز الثامنة.

اجابها بلطف:

- بعضنا لديه أعمال، لو وجدتك نائمة لكان عليّ ان اعود ثانية.

- هل تريد بعض القهوة يا سيد لاروش؟

سلب سؤال سوزان الفرصة من هاريت لتجيبه، فدخل الصالون الصغير حيث الحقائب. وفي لحظات ارتدت قميصاً نظيفاً وبنطلوناً من القطن المخطط وانتعلت حذاء ذا كعب عال، وسرّت للطول الاضافي الذي منحها اياه. فمع انها ممشوقة القامة، الا ان اندريه يطولها بعدة سنتمترات، واذا استطاعت تقليل فارق الطول يكون أفضل.

لما عادت الى المطبخ وشعرها المسدل يبرق من الفرشاة، احست انها تستطيع التعامل معه بالرغم من انها لم تتبرج.

كانت سوزان قد احضرت القهوة وهي تقوم بسكبها وتقديمها الى الضيف. انتظرت هاريت بفارغ الصبر ان يطرح عليها السؤال الملح لديه، لكنه لم يفعل. لاحظ عودتها بحركة خفيفة من حاجبيه، ثم اثنى على سوزان درايتها في الأمور المنزلية. اشرق وجه سوزان نتيجة الثناء المقصود، لكن هاريت صرّت على اسنانها بقوة وتعجبت لأن اسنانها لم تتكسر!

قدّمت سوزان الى خالتها فنجاناً من القهوة، ورفضت قطعة الخبز متجاهلة الرجاء الذي ظهر في عيني ابنة اختها. فرغم كل التعقل الذي

حاولت اقناع نفسها به الليلة الماضية، كان شيء يحثّها على ابلاغه انها ستتركان البيت.

وعلّق لاروش فجأة:

ـ اخبرتني ابنة اختك انك خبيرة بالسيراميك.

فرمقت سوزان بنظرة منزعجة وأجابته:

ـ انت تعلم ان الأولاد يبالغون.

تجاهلت تذمر سوزان وتابعت قائلة:

ـ أتصور انك ترغب في معرفة قراري من ناحية البيت.

وضع اندريه فنجانه على الطاولة، وكان اليوم يرتدي بنطلوناً من الجينز يتهدل على وركيه وقميصاً اخضر زيتياً يضفي على ملامحه نوعاً من الشحوب. عندما استدار ليواجهها، احست انه ينوي تأجيل سؤاله عن القرار الذي توصلت اليه فشعرت بارادتها تضعف... يا الهي، قالت لنفسها، هل يريدني ان أبقى هنا؟

ـ أنت ذاهبة؟

لم تكن هذه العبارة بمثابة سؤال بل كأنه يقرر واقعاً. تحوّل انتباه هاربيت لبرهة عندما سمعت سوزان تشهق معترضة. ثم نظرت اليه وانكرت التهمة بقولها:

ـ لم يكن لدي متسع من الوقت لكي اجد بيتاً آخر ولأدخل في مفاوضات البيع والشراء. لكن بالطبع اتوقع منك ان تؤمن السريرين اللذين وعدت بهما، والطباخ.

اجاب بالفرنسية:

ـ بالطبع.

كانت علامة قلّة انتباه ان يجيب بلغته الخاصة، وأجبرت هاربيت على تجاهل الاستفسار الصريح الذي بدا في عينيه. كانت نصف غاضبة من نفسها لأنها قبلت البقاء وتميل الى لومه لهذا الوضع. لم تستطع اقناع نفسها بأن لا علاقة له بهذه القضية. وبتصرف صبياني ارادت ان تجعل منه كبش فداء، ومن أجدر من أندريه لاروش ان يكون ذلك الكبش؟

سمعوا وقع أقدام في الخارج، ونظرت هاربيت بتعجب الى ولد في الخامسة عشرة من العمر يقف على العتبة. كان شاباً وسيماً طويل القامة ذا

منكبين عريضين وشعر أسود وملامح رقيقة تدل على ذكاء. وقف رافعاً يديه ليسند نفسه على حاجب الباب، وارتعشت عيناه باهتمام عندما رأى الفتاتين ثم انفرجت أسارير وجهه بابتسامة لما وقع بصره على الرجل.

وقال له الشاب بارتياح:

ـ انت هنا؟ كنت ابحث عنك.

علمت هاربيت على الفور من هو. فالشبه كان واضحاً، إذ ورث الشاب عيني ابيه. لم يكن مرتبكاً وهو يقف هناك والفضول يعمق نظراته.

قلص اندريه عضلات كتفيه قبل ان ينظر صوب الشاب. ثم قال له بالانكليزية:

ـ لا تملك هذا البيت بعد اليوم يا بول، وكان باستطاعة لويز ان تقول لك اين انا.

لويز. هل هذا اسم زوجته؟ توقفت هاربيت عن التنفس. هل من المعقول ان ينادي زوجته باسمها امام الشاب؟

وهتف الزائر مندهشاً:

ـ ماذا؟

قابل عيني اندريه بتحد ودارت بينهما معركة بصرية صامتة، ثم نظر الى وجه سوزان الذي تورد فجأة ثم حوله الى هاربيت وقال:

ـ عذراً ايتها الآنستان.

بدا غير مقتنع بما يقول، وسمعت هاربيت صوت تنفس اندريه الغاضب. وقال:

ـ هذا ابني بول.

لم يكن بحاجة الى التعريف عن ابنه لأن الشبه بينهما واضح، لكن هاربيت ردت قائلة:

ـ صباح الخير يا بول.

تأملها الشاب باهتمام وعلق بتمهل:

ـ انت الآنسة انغرام أليس كذلك؟

واندهشت هاربيت للسهولة التي نقل بها حديثه من الفرنسية الى الانكليزية.

ثم اضاف:

- قال لنا والدي انك اشتريت هذا المكان بدون ان تعاينيه.
وخطا الى الأمام متجاهلاً نظرات اندريه المتفحصة وتابع يسألها:
- هل قررت البقاء في روشفورت؟
- روشفورت.
قطبت هارييت حاجبيها عند سماع اسم روشفورت، واستوضحته قائلة:
- اتقصد روشلاك؟
نظر بول بسخرية الى والده، وهز كتفيه قائلاً:
- ربما. في كل حال، هل ستبقين هنا؟
اجاب والده:
- هذا الأمر ليس من اختصاصك.
فاعترض بول قائلاً ببراءة:
- ربما استطعت مساعدتكما.
لكن هارييت لاحظت ان والده لم ينخدع بكلامه وشاطرته الرأي ثم استدارت قائلة:
- لا تجعلنا نؤخرك عن اعمالك.
- حسناً.
ونظر اندريه الى ابنه بعصبية ثم قال هارييت:
- سأرسل الاثاث المطلوب في وقت لاحق من النهار.
- شكراً.
تحركت شفتا هارييت بنوع من الابتسامة المهذبة المجردة من الدفء.
وحول بول طرفه بين الآنستين لكن ذراع ابيه قادته نحو الباب وقال اندريه وهما يخرجان:
- اذا واجهتكما اية صعوبات اخرى فارجو منكما الاتصال بي.
لم تدرك هارييت الا بعد مغادرتها انها لا تعرف اين يسكن اندريه.
وركضت سوزان واحتضنت خالتها قائلة بلهفة:
- شكراً. شكراً.
لكن هارييت لم تكن صافية المزاج لتقدر عفوية رد فعل سوزان، واجابتها باختصار:

- لا تشكريني، علينا ان نعمل كالعبيد قبل ان نبدأ بالتمتع بهذه الاجازة.
على الأقل، العمل الشاق سيبعد طيف اندريه لاروش عن مخيلتها.
استعانت بمخل ومطرقة لفتح نوافذ الطابق العلوي، مع العلم ان محاولة اقفالها ثانية ربما تصبح مستحيلة. طلبت الى سوزان ان تنظف ارضية غرفة النوم ثم نقلت كل محتويات المطبخ الى الخارج وبدأت بتنظيف الجدران والخزائن. كان عليها ان تؤجل تنظيف قاعة الجلوس، وفي أي حال لن تقضيا وقتاً طويلاً في تلك الغرفة.
في الخارج وجدت كشكاً صغيراً قرب بيت الخلاء يحتوي بعض ادوات الزراعة البدائية. اخذت منجلاً ثقيلاً، ثم طوحته ببراعة في الهواء، فرأت بدهشة رؤوس زهرات دوار الشمس تقع امام قدميها.
كان المنجل حاداً اكثر مما تصورت، فنظرت الى الحديقة المغمورة بالأعشاب البرية، وقالت لنفسها ان دور كل هذا يأتي لاحقاً.
عادت الى المطبخ حيث الجو حار والنار لا تزال متقدة، فلم تجرؤ على اطفائها قبل ان يرسل لها الطباخ. منذ الأمس لم تتناولا وجبة ساخنة، فقررت ان تحضر بعض البيض واللحم المقدد على النار اذا اضطرت لذلك. لم ترغب في وضع المقلاة المطلية بمانع ضد الالتصاق على الموقد، لكنها مجبرة على ذلك لأن سوزان بحاجة الى وجبة أفضل من الخبز والجبن.
عندما ناهزت الساعة الحادية عشرة بدا منظر المطبخ مقبولاً. مع انه يحتاج الى طبقة من الطلاء، الا انه اصبح نظيفاً على الأقل.
في هذه الأثناء كانت سوزان قد نظفت غرفة النوم، فتعاونتا على سحب الفراش الى الحديقة، ثم فككتا السرير واخرجتا قطعه ايضاً.
صوت سيارة في الخارج جذبها الى النافذة. وعندما رأت هارييت الشاحنة الصغيرة محملة بالأثاث احست بارتياح. كان البيت قد اكتسب رونقاً، والشيء الوحيد الذي يزعج هارييت هو وجود اندريه بالجوار.
عرّف سائق الشاحنة بنفسه فقال ان اسمه برتراند مادوك. كان قصير القامة ثقيل البنية رمادي الشعر وله عينان صغيرتان بنيتان تشبهان الأزرار.
عندما رأته هارييت خيل اليها انه لن يستطيع حمل السرير الى الطابق العلوي، لكنها سرعان ما غيرت رأيها لأنه بدا شديد العزم وبسهولة متناهية

استطاع ان ينقل السرير والمغسلة.

وهتفت سوزان متأففة:

ـ لقد انتهيت لتوي من تنظيف الغرفة!

لكن برتراند اكتفى بهز رأسه وقال يطمئنها:

ـ لحظة يا آنسة.

فامتثلت سوزان، ووقفت تنظر اليه.

لم يرسل اندريه سريرين وطباخاً فقط، اذ حوت الأغراض خزانة صغيرة «وتواليت» قديمة قيمة ومزخرفة ببراعة، ومقعدين من القطيفة الحمراء، واريكة باهتة اللون، ومكتباً من القرن التاسع عشر. طلبت هارييت من برتراند ان يضع الخزانة الصغيرة في المطبخ لأنها تصلح للاطباق والأواني. . . ليتها نظفت قاعة الجلوس قبل ان تصل الأغراض.

ضايق هارييت ان تشعر بالامتنان نحو اندريه، انما بدون شك كان لطفاً منه ارسال هذا الاثاث. هل استخدم هذه الطريقة ليجعلها مدينة له؟ لكن لماذا تفكر هكذا وقد دفعت مبلغاً مناسباً ومن حقها ان تحصل على تلك الاشياء؟ وتساءلت من اين اتى بكل هذا. لو انه اشترى اثاثاً عصرياً جديداً لكلفه اقل، ما لم يكن حصل على هذه القطع من احد القصور المتداعية. . . ليست هذه المرة الأولى التي تساءلت فيها عما كان يفعل في قاعة المزاد في سان جرمان حين رأته قبل ثماني سنوات، وفجأة ادركت لماذا بدا اسم روشلاك في حينه مألوفاً. فبعض الأغراض التي عرضت للبيع آنذاك كان من قصر روشلاك. طبعاً! لماذا لم تتذكر هذا من قبل! اذن من هو اندريه؟ وكيل عند العائلات الارستقراطية التي لحقها الفقر مع الزمن؟

انهى برتراند عمله في غضون ساعة تقريباً، ورفض ان يتناول الشراب. ثم صعد الى سيارته فاضطرت هارييت الى اللحاق به ركضاً قبل ان يقفل باب السيارة وقالت:

ـ ارجوك ان تشكر السيد لاروش بالنيابة عني.

فرد مبتسماً:

ـ لا شك انك تستطيعين شكره بنفسك.

ثم رجع بالسيارة الى خلف ومضى.

عادت هارييت الى البيت وهي تفكر في كلماته. لقد بدا واثقاً مما يقول.

هل الكل يعرف ان اندريه يتردد على البيت؟ ألم يعترض احد؟ قررت بحزم انها لا ترغب في ان تتكرر هذه الزيارات، وواجهت بهجة سوزان بوجه مكفهر.

لم تستطع اظهار عدم اللامبالاة لوقت طويل. فالطباخ الذي ارسله اليها كان جديداً ويعمل على الغاز ومزوداً بفرن. الخزانة اصبحت اجمل الآن وهي مزينة بصحون على رفوفها. وحتى الشمس استطاعت الآن ارسال اشعتها من خلال النوافذ النظيفة.

حملت هارييت حقائبها الى الطابق العلوي، وانصرفت الى توضيب السريرين ثم فردت عليهما غطاءين جميلين فبدت الغرفة اكثر اشراقاً.

انهت سوزان بسرعة من توضيب الثياب، الفساتين والتنانير والبنطلونات معلقة بترتيب في الخزانة، والملابس الداخلية وضعت في الأدراج.

التفتت سوزان الى خالتها وهتفت بسرور:

ـ الا يبدو كل شيء جميلاً؟ ألست سعيدة ببقائك هنا؟

فأحاطتها هارييت بذراعيها واعترفت قائلة:

ـ كنت على حق بأن هذا المكان قابل للتحسين.

بعد تناول وجبة الغداء، كان الجو حاراً للقيام بأي عمل. ارتدت سوزان لباس السباحة ونزلت الى الغدير، ثم استلقت على حصيرة غير مبالية بالنمل.

حملت هارييت كرسياً هزازاً الى الخارج، واخذت تكتب اسماء الاغراض التي اعتقدت انها بحاجة اليها. لكنها احست ان هذا العمل البسيط مرهق، فوقع القلم من يدها واسترخت على المقعد. كان الهواء ساكناً لا يداعب اوراق الاشجار، ولم يعكر الهدوء سوى تغريد العصافير واصوات الحشرات وخرير الجدول الناعم.

تحولت افكارها نحو اندريه لاروش لعدم انشغالها بشيء، والى الصدفة الطريفة التي جعلته هو مالك البيت الذي اشترته. ربما لحسن الحظ لم تستقص عنه معلومات اكثر لأنها لو عرفت المزيد لما حضرت الى هنا.

وبالرغم منها عادت بها الذكريات الى المرة الأولى حيث التقت هذا الرجل الذي لعب دوراً مخرباً في حياتها. . . منذ ثماني سنوات كانت في

الثامنة عشرة من عمرها وفي اول رحلة لها بصحبة تشارلز هوكني الى باريس. كانت يومذاك في غاية السرور عندما اتيح لها لمس المعروضات التي قرأت عنها فقط، وزياراتها المتعددة لقاعات العرض فاجأتها بثروة من الجمال والحرفية المتقنة. ربما في تلك اللحظات اصبحت تهوى البورسلين.. عندما حملت في يدها تمثالاً رائعاً وتعلمت ان تميز ماركة الدوق دو فيلوروا مؤسس المصنع. ام انها مع مرور الزمن، تتذكر كل تلك التفاصيل وتعطيها وزناً اكثر مما تستحق؟

مهما كانت الحقيقة، تذكر حتى الآن كيف وقفت بجانب تشارلز في مؤخرة قاعة المزاد الواقعة في ساحة سان جرمان، وهي تراقب منادي المزاد العلني يقوم بعمله. احست فجأة ان هناك من يراقبها، ومع ان تشارلز حسبها مستغرقة بالمزاد، فقد استدارت ونظرت الى رجل واقف في الناحية الاخرى من الغرفة يحدق اليها باهتمام. كان اطول من معظم الرجال في القاعة، اسمر البشرة ونحيلاً. تقاسيم وجهه غير منتظمة لكنها اكثر جاذبية من التقاطيع الوسيمة. عينان غائرتان، خدان عاليان، انف بارز وفم به نوع من الالتواء القاسي. تذكرت انه كان يرتدي بزة من المخمل الكحلي وقميصاً من الحرير. لم تلتق هاريت من قبل احداً يشبهه، اما الطريقة التي كان ينظر بها اليها، فجعلتها تحس بالضعف والخوف الداخلي. لم يكن مثل الشبان الذين عرفتهم، ولا مثل تشارلز الذي كان بديناً، قصير النظر وأصلع. ايقنت ان هذا الرجل في الثلاثينيات، اي اصغر من تشارلز بعشرين سنة، وواثق من اعجاب النساء به. احست بالذعر عندما اثار مناسبة ليتكلم الى تشارلز... وبالتالي اليها. لكنها ادركت الآن ان لم يكن داع للخوف في حينه. كان رائعاً وجذاباً ومن السهل التحدث اليه. سألها عن عملها وعن طموحاتها وكم من الوقت ستبقى في باريس. جعلها تشعر انها شخص مميز. وعندما غادرت قاعة المزاد كانت تحس بنشوة دامت حتى اعادها تشارلز الى الواقع. في اليوم التالي اتصل بها هاتفياً فنسيت توصيات تشارلز وقبلت تناول العشاء معه في تلك الليلة. لم يوافق تشارلز لكنه لم يستطع منعها، وحتى لو فعل لكانت تجاهلته. اصطحبها اندريه الى مطعم في مونمارتر.

اوصلها الى فندقها رأساً، وخجلت من نفسها عندما احست بخيبة وهو

يقبل يدها متمنياً لها ليلة سعيدة.

ووبخها تشارلز قائلاً:

- هل فقدت عقلك؟ لو عرف اهلك بهذا التصرف فما عساهم يقولون؟

فأجابته بحزم واحترام:

- انني في الثامنة عشرة من العمر يا سيد هوكني واهلي لم يتدخلوا ابداً في اختياري لاصحابي.

كتمت عنه ان والديها يعرفان جميع اصحابها عبر اهلهم او شقيقاتها الأكبر سناً، ومن جهة ثانية لم تشعر ابداً بالنشوة التي احستها مع اندريه وكانت غبية عندما اعتقدت انها تسيطر على الموقف. مخاوف تشارلز كانت في غير مكانها لأنها بعد تلك الليلة لم تر اندريه ثانية الا بعد عدة اسابيع.

عادت بصحبة تشارلز الى لندن، وبالرغم من الاحساس بالفراغ كلما تذكرت باريس استطاعت ان تتحمل متاعب الحياة. في هذه الأيام كانت تقيم مع والديها في غيلفورد وتذهب كل يوم الى لندن. هذا يعني السرعة في الصباح والهرولة في المساء، لكن والدتها تحبذ هذا التدبير وهاريت لا تمانع. كانت تلتقي بعض الناس في عملها الا ان جميع اصدقائها يقيمون في غليفورد، ولو لم تتواجد هناك لحرمت من الحفلات الراقصة والاجتماعات التي تذهب اليها مع الأصدقاء.

كانت وحدها في المخزن ذات يوم حين دخل اندريه، وقد فقدت الأمل بمشاهدته ثانية واصبحت مقتنعة بأن ما قاله تشارلز صحيح، وهو ان اندريه يتلاعب بعواطفها، وانها محظوظة لأن القصة انتهت دون ان تخلف جراحاً.

مجيئه المفاجيء اربكها، وبدا متغيراً كأنه كبر سناً او فقد شيئاً من وزنه. حياها وكأنه فقد ايضاً شيئاً من جاذبيته التي عهدتها، والشيء الوحيد الذي لم يتغير نظرة عينيه اللتين قالتا لها انك متعة للنظر. وسألته لعجزها عن قول شيء آخر:

- ماذا تفعل في لندن؟

لكنه تجاوزها الى داخل المخزن فلحقت به الى الغرفة الخلفية.

تشارلز لم يكن يسكن فوق المتجر، بل في منزل مريح في سانت جونز وود وهذه الغرفة كانت مخصصة لاستضافة الزبائن. وعلق اندريه قائلاً:

- رب العمل ليس هنا، رأيته وهو يغادر المكان.

ثم نظر اليها سائلاً:

ـ قولي لي، هل اردت لقائي ثانية؟

عندما عاد تشارلز الى المخزن كان الباب مقفلاً والستائر مسدلة واضطر الى ان يحدث ضجيجاً لوقت طويل قبل ان تأتي هاريت لتفتح له. شعر انه قطع عليها خلوتها، وتساءلت هاريت كيف لم يطردها من العمل. لكنه جلس يرشف القهوة ويتحادث مع اندريه، بينما اخذت هي توضب الأمور. لم تفهم كيف استطاع اندريه ان يبدو هادئاً بعد كل ما حصل الا انها لاحظت ارتجاف يده وهو يرفع فنجان القهوة. لاحظت كذلك انه ليس مرتاحاً كما يبدو. تصرفها افزعها اذ لم تتصور انها تستطيع التصرف بهذا الطيش دون ان تحس بتأنيب الضمير. كيف سمحت لاندريه ان يغازلها؟ هذه اول مرة تتصرف فيها على هذا النحو مع رجل. ولو لم يعد تشارلز في الوقت المناسب لكانت فعلت كل ما طلبه منها اندريه. اعترفت لنفسها بهذا لأنها تعودت ان تكون صريحة مع ذاتها. كانت غير مرتاحة لما حدث وكأنها وجدت شخصية اخرى بداخلها لم تعرفها بعد. اهي كالفتيات اللواتي قرأت عنهن، يلقين بأنفسهن في حضن اي رجل؟ لكنها توغلت في الماضي وايقنت ان الحياة ربما سهلت عليها لو كانت مثل هؤلاء النساء.

وفي السنوات التي تلت خيانة اندريه تاقت الى ان تشعر بعاطفة نحو اي رجل آخر، لكن احاسيسها جمدت، والبرودة التي نعتت بها كانت في مكانها. انما في ذلك الزمان، سيطر عليها خوف كبير من ان لا ترى اندريه ثانية. اما هو فكانت الحالة غير طبيعية بالنسبة اليه، لأن تشارلز كان يتصرف معها وكأنه والدها، ولا شك ان النسوة اللواتي يخالطهن اندريه كانت لديهن خبرة في هذه الأمور، فلا يحتاج للاختلاء بهن في الغرفة الخلفية لمخزن الريات، وتصورت الشقق المضاءة بالشموع والمفروشة بجلود النمور... ما عادت تهتم لجاذبية شعرها الاسكندنافي الأشقر، ولا لتفتح صباها الذي لا يستطيع اي تبريج تقليده.

لم يكن خوفها في محله، ففي الأشهر الثلاثة التي تلت هذه الحادثة، امضى اندريه اوقاتاً طويلة في لندن، حيث كان يطير اليها من باريس صباح السبت ويعود مساء الأحد. لم يوافق تشارلز على ما كان يجري لكنه ادرك انه لا يستطيع تغيير رأي هاريت بالنسبة الى اندريه لاروش.

والداها كانا اقل تفهماً. لقد التقيا اندريه في عدة مناسبات لكن والدتها وجدت فارق السن بينهما كبيراً. اما والدها فلم يكتف بتلميحات اندريه العفوية الى بيته في فرنسا، بل اراد ان يعرف شيئاً عن عائلته وكيف يكسب قوته، وهاريت بدأت تقلق كلما تهرب اندريه من الاجابة.

علاقته معها لم تكن مرضية. كان عليهما ان يلتقيا دائماً في الأماكن العامة فلم ينفردا ببعضهما ابداً. في الحقيقة، كانت مرتاحة لذلك مع العلم ان احاسيسها كانت تتطلب مزيداً من الالفة، ولم تعد تثق بنفسها من ناحيته، وتربيتها اجبرتها ان تتقيد بالمبادىء الاخلاقية التي يتمسك بها والداها. ولكن كل ذلك لم يمنعها من الأحلام، وطالما عادت بها الذاكرة الى اللحظات التي قضتها معه في مكتب تشارلز، متمنية لو لم يقطع عليهما تشارلز ذلك اللقاء.

ولأسابيع عديدة تذمرت والدتها لأن اندريه لم يقدم هاريت الى عائلته كما تعرف هو بعائلتها. الم ترغب هاريت بلقاء عائلته؟ الا تفكر انه يجب عليها ذلك؟

اصبحت الفتاة ثائرة الأعصاب ومكبوتة. فقالت لاندريه ما كانت تردده والدتها، ولم تصدقه عندما قال لها انه فقد والديه. وسألته بارتياب:

ـ مع من تعيش اذن؟

لكنه رفض المناقشة حول هذا الموضوع واجابها بنعومة:

ـ ما الفرق؟ هذا الموضوع يخصنا وحدنا.

فأجابته:

ـ انت التقيت بعائلتي.

فقال بلهجة لا مبالية:

ـ انت التي اردت ذلك بدون ان اطلبه منك.

اغاظها بعدم اكتراثه فسألته محتدة:

ـ تقصد انك لم ترغب في ذلك؟

بعد لحظات كانت تشاجره بعنف، واخرجت كل ما تكدس في جعبتها من مرارة وحسرة على نفسها في الأسابيع الماضية... لم تلاحظ انه لم يشترك بالنقاش ثم نهض من مكانه وتركها وحيدة في مقصف المطار.

الأيام التي تلت هذه الحادثة كانت مؤلمة جداً بالنسبة الى هاريت.

وصارت تذهب من البيت الى العمل كأنها دمية مسيرة. ثم اخبرت امها ان كل شيء قد انتهى بينها وبين اندريه، انما لم تذكر السبب. ربما حزر والداها لكنهما لم يسألاها عن التفاصيل. وتساءلت هارييت اذا كانت تستطيع ان تسامحهما يوماً على ما فعلاه بها.

بعد اسبوعين، اتصل بها اندريه هاتفياً وفي وقت كان يعلم ان تشارلز في فترة الغداء. وعندما سمعت صوته اصطكت ركبتاها من الضعف... سألها:

- هل سامحتني انت؟

مضت ثوان من الصمت، قال بعدها اندريه:

- كنت اود الاعتذار فقط يا هارييت، ولأسمع صوتك مرة اخرى. صدقيني، لست انت الملومة على اي شيء.

ملأها الذعر فأجابت هاتفة:

- ماذا تقصد؟ متى اراك؟

- لن تريني بعد اليوم، لن ازور لندن ثانية.

- ولكن يا اندريه.

كانت يدها الممسكة بسماعة التلفون تتصبب عرقاً. واردفت:

- اندريه، اود ان اراك ثانية.

اجابها بخشونة:

- لا فائدة من ذلك، والداك على حق. انت تحتاجين الى رجل اصغر سناً... شخص مثلها يعيش بحسب مفاهيمها ومثلها.

احست هارييت بالخجل وفقدت صوابها وهي تحتج بيأس:

- انا لا ابالي بهما! لا تهمني مثلهما...

وعندما سمعها تجهش بالبكاء قاطعها قائلاً بوحشية:

- انت لا تقصدين ماذا تقولين. والدتك تعلم اني لا استطيع مشاهدتك بلا...

وانقطع عن الحديث فجأة وخافت ان يكون قد انهى المكالمة، فتوسلت قائلة:

- ارجوك، دعني احضر لأراك. اسمح لي بأن اجيء الى باريس، بامكاني ان ادعي السفر مع السيد هوكني. ارجوك يا اندريه، لا ترفض طلبي.

لم يكن من السهل اقناعه، ومع انها عرفته جيداً فقد تساءلت اذا كان قد فشل في ردعها. وهكذا ذهبت الى باريس، وقضت عطلة نهاية الاسبوع معه في فندق في شارع ريفولي.

رغم كل ما حدث بعد هذا اللقاء اعتبرت هارييت هذه العطلة اجمل ما في حياتها. بدت باريس كأكثر مدن العالم رومانطيقية، وهي في الثامنة عشرة من العمر ومغرمة برجل استطاع ان ينسيها كل شيء. كان ينتظرها في المطار فركضت اليه وضمها الى صدره فنسيت تعاسة الأسابيع التي فرقتهما.

لكن العودة الى لندن كانت اسوأ مرحلة. فقد توقعت الى حد ما ان يطلب منها اندريه البقاء الى جانبه، او على الأقل ان يعود معها الى لندن، لكنه لم يفعل. رافقها الى المطار، وحياها بيده بينما كانت الطائرة تهم بالاقلاع. وهذه كانت آخر مرة رأت فيها اندريه.

تسلمت منه رسالة وبعد قراءتها القت بها في النار.

بعد وقت قصير، استأجرت شقة في المدينة، ومع ان اموراً عديدة حدثت وعقدت صلحها مع والديها، فلم تسامح نفسها على الطريقة المخجلة التي عاملتهما بها.

كان تشارلز الانسان الوحيد الذي احس وتفهم ما قاسته. ساعدها لتجد شقة تعيش فيها. ردت له الجميل بالعمل بجدية ونشاط لترفع ثقل العمل عن كاهله، كانا مثل شريكين وليس كرئيس ومرؤوس. وعندما قتلت شقيقتها الكبرى وزوجها، اقترح تشارلز عليها ان تأخذ الفتاة بعيداً وتذهب بها.

- انك بحاجة الى اجازة.

وكان هذا صحيحاً لأنها لم تحصل على اجازة منذ عيد الميلاد وقد بدأت تحس بالارهاق. لكن كيف ستحصل على الراحة ما دام اندريه لاروش الى جوارها؟ ما عسى تشارلز يقول لو علم بالأمر؟ وماذا سيقول والداها؟

نهضت الآن من كرسيها، وسارت عبر البوابة المؤدية الى الدرب.

اقتلعت بعض الاعشاب واخذت تمضغها وهي غائبة عن الواقع تنظر الى الاشجار التي حجبت الجدول عن النظر. لو لحقت الدرب نفسه الذي سلكه اندريه، هل تصل الى بيته؟

ماذا عسى زوجته تقول لو وصلت من دون دعوة، وعائلته؟ تساءلت عن عدد اطفاله وفكرت بغضب، انه يستحق ان تذهب الى بيته وتعرّف نفسها. تخيلت ذهوله لو عاد الى البيت ورآها جالسة مع زوجته واخذ يتساءل عن الاشياء التي باحت بها!

قلصت شفتيها فاقدة الصبر وقالت في نفسها، يا آلهي، هل سأمضي الاجازة كلها وانا اتحسر على الماضي؟ الماضي مات! كم مرة يجب ان تذكر نفسها بهذا!

وفي طريق عودتها الى البيت تذكرت بول وأيقنت انه كان في السابعة من العمر عندما قضت العطلة مع والده في باريس.

٤ - تحت ظل القصر

في الأيام القليلة التالية، وجدت هاريت ان لديها اعمالاً كثيرة لتملأ فراغها. ذهبت الى روشلاك وعدا الاغراض الأساسية التي اشترتها مثل الحليب والبيض والخبز، ابتاعت طلاء وافرشة وقماش ستائر. كان الصالون الغرفة الوحيدة التي لها ستائر انما في حالة يرثى لها، والاثاث الجديد يستحق ستائر افضل. الخياطة باليد ستكون شاقة، لكن باستطاعة سوزان المساعدة بينما تقوم هي بطلاء الجدران.

انتظرت ان يعود اندريه لتشكره على الأثاث الذي ارسله، لكنه لم يأت واحست بالانزعاج من ذلك. ارادته ان يأتي فتشكره وينتهي الأمر. وان يجعلهما تنتظرانه لأجل غير مسمى تمشياً مع عاداته. ثار غضبها ومسحت بقعة من الدهان لطخت فستانها الأزرق البحري.

مع نهاية الاسبوع بدا البيت يكتسب جمالاً. زينت حيطان المطبخ البيضاء بعدد من الصور التي وجدتها في سوق روشلاك، اما الخزانة الصغيرة فبدت اجمل عندما طليت باللون الأصفر، وعدد من قطع السجاد الصغيرة بسطت على الارض. القنديل المتدلي من السقف كان يبرق لأنه فرك جداً. نال الصالون وغرفة النوم حظهما من التنظيف والدهان والترضيب، مع ان هاريت كفت عن محاولاتها العديدة لاقفال النوافذ.

اما العلية فظلت الجزء الوحيد من البيت الذي لم تكتشفاه اذ كانت تؤجل مضايقة العنكبوت المعشعش هناك، وحتى تعهد سوزان بالقضاء على الحشرات الزاحفة لم تغير رأيها.

عندما اصبح البيت على ما يرام قررت سوزان استكشاف الجوار، فهما لم

تعطيا بيناك وكازيناك الا اهتماماً عابراً وبخاصة ان الضاحية المحيطة بها مبثوثة بالقصور والقلاع. ومن نقط المراقبة الموجودة على سور قصر بيناك كانت مشاهدة وادي الدور دون ممكنة. قررت هاريت ان تزور قلعة نود الواقعة على ضفة النهر المواجه لبيناك. خلال حرب المئة سنة احتل الانكليز قلعة نود، وجرت عدة معارك دامية بين الجيشين المتخاصمين، وهذه المنطقة غنية بالتراث التاريخي، وقد عثر في الكهوف والمغاور على بقايا هياكل عظمية ورسوم لسكان الكهوف.

وبينما سوزان تغسل اطباق الفطور قالت لخالتها:

- لنبدأ اولاً بزيارة القصر الموجود هنا. اقصد اذا كان صحيحاً ان مجموعة فنادق اميركية تود ان تشتريه كما قال السيد لاروش فلا بد ان يكون رائعاً.

فأجابت هاريت:

- لا اظن ان موقعاً كهذا ينال اعجابهم.

واكملت وهي تفحص درجة السمرة التي اكتسبها جلدها:

- الملاكون القدامى كانوا يعرفون اين يبنون قصورهم ويقيمون قلاعهم في افضل الأماكن حيث المناظر الخلابة وفي الأراضي التي تصلح لحماية قلاعهم. اظن ان مجرد استطاعتهم ان يكشفوا ما حولهم على مد النظر نوع من التحصين ضد الغزوات.

- اريد ان ارى هذا القصر في اي حال.

اجابتها هاريت:

- لا اجد مانعاً لذلك. كنت سأقترح زيارة كاهورز، انما نستطيع تأجيل هذه الزيارة الى يوم آخر.

نشفت سوزان يديها ثم قالت:

- الا تمانعين حقاً؟

ابتسمت هاريت واجابت:

- لماذا امانع؟ اعتقد انه سيكون يوماً حاراً ومن الأفضل ان لا نبتعد اكثر من بضعة كيلومترات عن روشلاك.

وجدتا سيارة الفيات ساخنة بعد وقوفها في الشمس لبضع ساعات، وفتحت هاريت جميع النوافذ قبل ان تصعدا اليها. كانت ترتدي بنطلوناً

قصيراً وقميصاً برتقالي اللون من دون اكمام، وجلد ذراعيها تكسوه سمرة عسلية جذابة. جلست سوزان بقربها وهي تلبس ثياباً مشابهة، وسألت بقولها:

- هل سأشبهك في يوم من الأيام؟ ليت شعري كان اشقر مثل شعرك.

فردت هاريت:

- ان حمراوات الشعر يلفتن النظر اكثر من غيرهن.

وتابعت وهي تبتسم:

- بالطبع ستكبرين كما فعلنا. تذكري دائماً انه من الأفضل ان يكون المرء نحيلاً وليس سميناً.

فجعدت سوزان انفها قائلة:

- في المدرسة فتيات ذوات قامات رشيقة.

ادارت هاريت محرك السيارة وقالت:

- هل هن طويلات القامة؟

- تقريباً بطول قامتي، اي حوالى خمسة اقدام وبوصتين.

- وما قياس حوضهن؟

- لا اعلم.

- على فتيات الرابعة عشرة من العمر ان لا يبالين بهذه الأمور.

- لكنهن يلقبنني «بالعظام» لنحول جسمي.

استطاعت هاريت ان تخفي ضحكتها ثم قالت:

- لو كنت مكانك لما سمحت لهذا الشيء ان يؤثر في، سوف تتغيرين مع الوقت.

زمت سوزان شفتيها وغمغمت:

- هذا الشاب... بول.

وتوقفت قليلاً لتفهم خالتها عما تتكلم ثم تابعت:

- انه لم يعرني اهتماماً اذ كان منهمكاً بالنظر اليك. هل تظنين انك جذبته؟

- اوه، يا الهي!

وتجنبت هاريت في آخر لحظة الاصطدام بحصان يجر عربة محملة بالقش ظهرت فجأة على منعطف الطريق. ردة فعلها كانت عفوية واخفت

اي جواب كانت قد تضطر لاعطائه على ملاحظة الفتاة.
وعندما استعادت رشدها اجابت ببساطة:
- كان يحاول اظهار رجولته فقط يا سوزان.
فأصرت سوزان قائلة:
- انك اعجبته، لقد لاحظت ذلك، ولم لا وانت تجذبين الرجال كما يجذب الرحيق النحل!
شهقت هاريت واجابتها:
- لا تبالغي! انت صغيرة السن لتدلي بتصريح كهذا، يا للسماء! انت تتكلمين مثل...
توقفت هاريت عن الكلام مرتبكة وايقنت بغضب ماذا كانت على وشك ان تقول، لكنها لم تخدع سوزان التي تمتمت بحزن:
- في الواقع والدتي قالت ذلك حين سألتها عنك في احد الأيام لماذا لا تتزوجين... اجابت... انك لست من النوع الذي يستقر مع رجل واحد.
جفلت هاريت عند سماعها هذا التعليق وقالت:
- فهمت.
- هل انت غاضبة؟
ونظرت سوزان الى خالتها بقلق، وحاولت هاريت ان تبتسم وهي تجيب:
- طبعاً لا.
فكرت وهي تنعطف على منحنى متعرج في الطريق، ان ما قالته اختها عنها آلمها اذ ظنت ان وجود المعجبين حولها دليل على طيشها هي وليس على طيشهم.
اعتقدت هاريت انها ستضطر الى المرور بروشلاك بالسيارة لتصل الى القصر، لكن على مشارف القرية رأت لافتة كتب عليها ان الطريق الى القصر يمر في درب ضيق مظلل بالاشجار، ويسمح بالمرور لسيارة واحدة فقط. توقفت هاريت مترددة ونظرت حولها ثم قالت:
- سنسد الطريق اذا ذهبنا بالسيارة الى هناك. والله وحده يعلم ماذا افعل اذا صادفت سيارة اخرى.

- اذن لنمش. من المؤكد ان القصر ليس بعيداً.
اقترحت سوزان ذلك، وفي اللحظة نفسها فتحت الباب.
ترجلت هاريت من السيارة، ونظرت بشك الى السماء الزرقاء. كانت الشمس ترتفع عالياً وبعد قليل امست فوق رأسيهما ترددت ثم قالت:
- لا اعرف، ربما اذا سرنا الى القرية نجد طريقاً معبدة.
فتوسلت سوزان بحماسة:
- اوه، لنذهب من هذا الطريق واذا لم نصل في غضون نصف ساعة نستطيع العودة.
وافقت هاريت لكنها اردفت:
- يجب ان اوقف السيارة بعيداً عن الطريق، في ظل الاشجار لتحميها من حرارة الشمس.
استمر الدرب ينحدر لوقت قصير، ثم انعطف بانحدار اقوى ووصل فوق مجرى الغدير الضيق. كانت ضفة الجدول مشجرة بكثافة ومكسوة بالأعشاب والأشواك المزهرة، والنباتات الزاحفة تفوح منها رائحة العشب الزكية. في جزئه الأسفل، توسع الغدير واصبح شلالاً سريعاً يتساقط فوق الحجارة المغطاة بالخشار.
نظرت هاريت الى الغدير عابسة وقالت:
- هذا هو جدولنا، انني متأكدة، انظري!
واومأت الى البعيد قائلة:
- أليس منزلنا هناك؟
شهقت سوزان وهتفت:
- هو بيتنا حقاً. لا بد ان هذه طريق مختصرة تقود الى القرية.
قالت هاريت:
- كنت اتساءل عن هذا.
تابعتا الطريق فوصلتا الى جسر يقطع الجدول. انتهت الدرب عند هذه النقطة، وخمنت هاريت ان القصر يقع على قمة الهضبة التي تتسلقانها. شعرتا بالحر الشديد بعدما سارتا اكثر من نصف ساعة، انما لم ترغبا في العودة. هذه مغامرة وكانت هاريت تحس الحماس نفسه الذي تحسه سوزان لبلوغ الهدف. وصلتا الى ارض مكشوفة ومن هنا لمحتا القصر لأول

مرة. كان جاثياً على صخرة شامخة ووعرة وأبراجه المتعرجة تبدو صفراء من انعكاس اشعة الشمس. لهثتا وهما تصعدان بين الجذور والنباتات الزاحفة حتى وصلتا حافة صخرية كأنها ممشى حول جدران القصر الخارجية. كان المنظر من هنا رائعاً يضم مشهد سطوح بيوت القرية وفروع النهر.

في البعيد ظهرت ابراج قلعة اخرى متجهة الى السماء وحول القصر بيارات الاشجار المثمرة التي اعطت نوعاً من المناعة للقصر. بدا ان الجدول يختفي تحت القصر وكانت هاريت تتأمل هذه الظاهرة عندما قاطعتها سوزان بصوت هادىء:

- الا تظنين ان ذلك بول لاروش؟

نظرت هاريت بسرعة، وبالفعل كان ابن اندريه يقفز في اتجاههم على الممر الضيق، ولم تستطيعا تحاشيه الا اذا هربتا في الاتجاه المعاكس.

حياهما بلا اكتراث بينما انتشرت على ملامحه الجذابة ابتسامة كسولة وأردف:

- لم اعرف ان لدينا ضيوفاً.

اجابت هاريت:

- لم نأت لزيارتكم، كنا نرغب فقط في مشاهدة القصر.

فضاقت عيناه باعجاب عندما استوعب جمال محياها وقال:

- اذن يجب ان تسمحا لي بمرافقتكما لزيارة القصر. عادة لا يفتح القصر للسياح انما اعتقد انه في استطاعتنا بصورة استثنائية ان نفتحه.

اجابته هاريت:

- لن نقبل خدمة كهذه.

خاب املها لأنها قامت بالرحلة من اجل لا شيء ورمقته بنظرة ثاقبة.

ثم قالت لرفيقتها:

- هيا بنا يا سوزان.

- كلا، انتظرا.

وامسك بول بذراعها ثم افلته عندما نظرت اليه بحدة، وقال متلعثماً:

- ارجوك... اود... ان اريكما المكان.

فنظرت سوزان الى هاريت تناشدها قائلة:

- من فضلك، دعينا نتفرج، لقد سرنا وقتاً طويلاً...

تنهدت هاريت ثم قالت:

- يبدو ان هذا العقار ملك خاص...

قاطعها بول:

- ارجوك، لا داع للهرب.

فحدقت هاريت اليه واجابت:

- انا لم احاول الهرب!

ثم حولت نظرها عنه بسرعة واردفت:

- حسناً، كيف ندخل القصر؟

- سأريكما.

ابتسم بول وقادهما الى الدرب الذي اتى منه. سار الثلاثة قرب سور القصر المتعرج، وعندما ابتعدوا عن الوادي الضيق العميق، اخذ الممر يتسع واصبح مظللاً بالاشجار. بعد بضع ياردات وصلوا الى نوع من الحدائق الكبيرة التي تواجه القصر.. هكتارات من الحشائش الناعمة كالحرير، بدت بحاجة ماسة الى التقليم. ورأت هاريت الغابات وراء الحديقة حيث تخيلت كونتات روشفور القدامى يصطادون الغزلان البرية. وكبقية المكان اصبحت النباتات والخضروات تنمو عشوائياً. كان القصر اكبر مما تصورت ومجهزاً بابواب حديدية ضخمة تفتح على الساحة الداخلية. نوافذ تبدو كأنها فارغة.

اتشح المكان بصبغة من الاهمال لكن هذه الحالة لم تطغ على دقة وجمال النقوش والزخرفة في الجدران، قال بول بتهكم:

- اربعمائة عام من التاريخ تتهدم لتصبح غباراً!

قالت سوزان متأثرة:

- هل القصر بهذا القدم؟

فهز بول رأسه وقال شارحاً:

- اعيد ترميم معظم هيكله في القرن التاسع عشر، واثناء الحرب احتل من قبل الالمان ونهب تماماً. مات اجدادي اثناء الاحتلال.

- آسفة لذلك.

وبينما هاريت تقدم تعازيها، جال في خاطرها ان اندريه اخبرها عن هذه الواقعة قبلاً.

هز بول كتفيه غير مبال وتقدم نحو البوابات الحديدية، فقالت هاربيت:

- انتظر! لا نريد الدخول.

- ولم لا؟

اومأت هاربيت بضعف وهمست:

- هل القصر مسكون؟

قطب بول حاجبيه واجاب:

- البيت الصغير عند المدخل مشغول فقط، الا تعلمين ذلك؟

اجابته هاربيت:

- اعرف؟ ماذا اعرف؟

رد بول بدهشة:

- اننا نسكن البيت الصغير.

تمنت هاربيت لو انفتحت الأرض وابتلعتها. كان من السهل ان تلهو وتتصور رد فعل اندريه عند دخولها مسكنه، لكن الاقتحام الفعلي كان شيئاً آخر.

قالت سوزان:

- هل تسكنون هناك في البيت الصغير؟ انه لشيء مثير!

لم يكن عند سوزان تحفظات خالتها، فنظر اليها بول باستعلاء ثم التفت الى هاربيت قائلاً:

- ما الأمر؟ الا ترغبين في رؤية القصر؟ اعدك انه ليس متداعياً كما يبدو للعين.

رفعت هاربيت شعرها بيد مرتجفة وبدأت تقول:

- ليس الأمر هكذا.

وعندما خرج رجل من باب البيت الجانبي ووقف ينظر اليهم. كان ذلك الرجل اندريه. لم تكن بحاجة للنظر اليه لتحس بتقلص عضلات معدتها، فقربه منها ارسل ذبذبات سيلت طعم العلقم في حلقها. لاحظهم بالرغم من ان اشعة الشمس كانت في عينيه وتقدم نحوهم.

لاحظ بول عدم ارتياح هاربيت فالتفت حوله وقطب عندما رأى والده ثم زمجر قائلاً:

- اتساءل اذا كان يعرف انك تخافينه.

- كلا، لا اخافه!

وصل اندريه قربهم، وضاقت عيناه السوداوان عندما سمع همساتهم الحارة وقال ناظراً الى سوزان:

- انها فرصة سعيدة مفاجئة. هل ينقصكما شيء؟ ربما لديكما بعض الشكاوى؟

كانت هاربيت متضايقة جداً من قصر بنطلونها، ومن لمحة السخرية التي ارتسمت على وجه اندريه. كان يرتدي بنطلوناً من المخمل المضلع البني وقميصاً من الحرير، ويبدو قاسي التعابير وبارداً، فتضايقت هاربيت مما اعتبرته تطفلاً عليهم... هل حسبهما جاءتا لتبحثا عنه؟ لو علمت انها ستلتقي به لبقيت على مسافة بعيدة من روشفور. خطر لها انه يمكن ان يكون وكيلاً لهذا القصر ولذلك عرف ابنه بول كل هذه التفاصيل عن المكان، او موظفاً عند النبلاء ويدعي ملكية هذا العقار. سرحت افكارها، هل من الممكن ان يكون مالك البيت الذي اشترته؟ وهل صحيح ان البيت تابع للقصر؟ وسمعت سوزان تقول له:

- اردنا مشاهدة القصر. انه في غاية الجمال، أليس كذلك؟ ما اجمل تلك القبة الصغيرة! اهي مدخنة؟

نظر اندريه الى البناء بسرعة وقال:

- انها في الواقع قبة الجرس. من سنين طويلة وفي ايام الثورة، كانت القرية تعاني من فقر كبير. اجدادي كانوا يقرعون الجرس وكل من يأتي لدى سماع صوته يقدمون له صحناً من الشوربة وقطعة خبز.

وتابع بسخرية:

- مع الأسف هذا لم يمنع ان تتدحرج رؤوسهم، ولحسن حظي، استطاع احد اولادهم الهرب الى انكلترا.

لم تعد هاربيت تفهم كلمة واحدة مما قاله بعدما ذكر كلمة اجداده. هل يعني هذا انه الكونت الحالي لروشفور؟ رفت بعينيها فنظر اليها بول بشيء من السخرية وقال:

- هل دخل شيء في عينك يا آنسة انغرام؟

فزمت هاربيت شفتيها بغضب واجابت ببرود:

- كلا، لكن اشعة الشمس قوية.

كان واضحاً ان بول لم يصدقها ولكن كلماتها جذبت انتباه اندريه الذي قال:

- ربما تودان تناول العصير معنا، وبعد ذلك، اذا احببتما، يأخذكما بول لتتجولا في ارجاء القصر.

اظهرت سوزان تحمساً لهذه الفكرة لكن هارييت هزت رأسها قائلة:

- يجب ان نعود لأننا اطلنا النزهة، وقد تركت السيارة في مكان غير مناسب.

تجاهلت خيبة امل سوزان، وسألها اندريه مقطباً:

- هل اتيتما بالسيارة؟

تنبهت هارييت الى انه اعتقد انهما جاءتا الى هنا عمداً، فكرهته لوقاحته، وقالت اول شيء خطر في بالها وهي تأمل الا تناقضها سوزان:

- كنا في طريقنا الى كاهورز في الواقع.

سرها على الأقل رؤية الاستغراب على وجهه لكن فرحتها لم تطل لانه اجابها:

- الا تظنين انكما سلكتما الطريق الغلط؟

فاحمرت وجنتاها عندما اعترفت بأنها غير متأكدة، وتابع قائلاً:

- كان عليكما ان تسلكا طريق بلسوربو لا طريق روشلاك.

اخفت هارييت استياءها وقالت:

- اني اشكر لك ارشاداتك ايها السيد.

ثم حيت بول وهمت بالانصراف لكن اندريه تقدم منها قائلاً:

- يجب ان تأتيا وتتناولا معنا الشاي في يوم من الأيام.

لكنها لم تستوضح تعبير وجهه لانه كان يطبق عينيه تقريباً. وتساءلت اذا كان يحس كم تحتقره. وتابعت قائلة:

- لا اريد ان اكون متطفلة.

اكد لها انها غير متطفلة على الاطلاق، وانهم يستقبلون عدداً قليلاً من الزوار هذه الأيام.

تساءلت هارييت كم فهم بول من هذا الكلام ذي الحدين، وقد سرها ان سوزان صغيرة السن ولا تفهم دقائق العبارات التي تبادلتها مع اندريه. اما بول فكان ينظر اليها باستغراب واهتمام.

وقالت سوزان فجأة:

- لم تشكري السيد لاروش على الاثاث الذي ارسله.

فصاح بول صيحة استهزاء وقلدها بسخرية، فنظرت اليه سوزان بدهشة وقالت:

- ما الأمر؟

فكرر بول كلمتي السيد لاروش مبدياً حركة غير مستحبة موجهة لهارييت، فوبخته قائلة:

- ما دام والدك يوافق على ان تناديه بالسيد لاروش، فلا ارى مبرراً لتحقيرنا لأننا نناديه بهذا الاسم. واذا كنت نموذجاً لابناء الارستقراطيين فليتهم يتبرأون منك!

ثم امسكت بذراع سوزان وقادتها بسرعة الى المكان الذي اتتا منه.

- لحظة من فضلك...

قبضة يد اندريه وهي تمسكها من ذراعها جعلتها تقف على الرغم منها. تركت يد سوزان فجأة واستدارت تنظر الى اندريه بوجل. لم تعرف هارييت من تعالج اولاً، كانت تريد ان تنزع اصابع اندريه عن ذراعها وفي الوقت نفسه ان تواسي سوزان. ونظرت الى اندريه بغضب قبل ان تقول للفتاة:

- لا تنظري هكذا يا سوزان، فلا احد يبغي ايذاءك.

نظرت ثانية الى اندريه بصمت كأنها تتحداه، فتركت يده ذراعها. لكن فمه اصبح خطاً واحداً، وتساءلت اذا لم تكن متفائلة اكثر مما يجب. ارتاحت لأن بول قد اختفى، وحول اندريه نظره عن وجه هارييت ونظر الى الفتاة الصغيرة قائلاً بهدوء:

- اعتذر عن تصرف ابني. آسف لأنه في السنوات القليلة الماضية اصبح فظاً. انه ليس معتاداً على الفتيات الانكليزيات المهذبات.

بللت سوزان شفتيها وقالت:

- لا بأس.

ونظرت بخجل صوب خالتها وقالت:

- هل ستأتين؟

كانت هارييت تهم بمغادرة المكان عندما تكلم اندريه للمرة الثانية:

- لحظة يا سوزان، سوف نلحق بك، انني ارغب بمحادثة خالتك على

انفراد.

انتفض رأس هارييت فجأة واجابته:

- لا اظن يا كونت ان لدينا ما نقوله.

لكنها برغم برودة جوابها خفضت نظرها اذ لم تتحمل نظرة اندريه النافية. وبحركة متضايقة اومأت ثم قالت لسوزان:

- اسبقيني يا سوزان، لن اتأخر سوى دقائق قليلة.

ترددت سوزان قليلاً ثم مشت على الدرب المنحدر الذي يقود الى الوادي. وبقيت هارييت واقفة مع اندريه في ظل شجرة الطقسوس الكبيرة.

وعندما اصبحت سوزان بعيدة عن مرمى السمع، نظرت هارييت الى طرف حذائها وهي تحفر الأرض اليابسة وقالت لاندريه:

- حسناً، ماذا تريد ان تقول؟

خيم جو من الصمت بينهما كأنه اصبح وجوداً بذاته، وفي الأخير، تكلم اندريه قائلاً:

- ادرك ان الوضع صعب يا هارييت لكن لا ينفع ان تعامليني كأبرص!

رفعت رأسها بتحد وسألته:

- لم لا وانت كذلك بالفعل؟

مرت فترة اخرى من الصمت ثم قال:

- هل تكرهينني يا هارييت الى هذا الحد؟

كان يبدو متعجباً، وانفجر غضبها مرة اخرى فهتفت:

- ماذا كنت تنتظر؟ ان افرح لمشاهدتك؟ ان اكون قد نسيت انك حيوان اناني؟

تقلصت عضلات وجهه عند سماعه اتهاماتها، ورأت شريان عنقه ينتفض بسرعة من خلال قميصه المفتوح على عظام صدره القوية، وجلده مسمّر وملطخ بالعرق. تأثرت للمشهد، فقال لها:

- العلاقة التي كانت بيننا كانت ستنتهي يوماً بمعرفتك للحقيقة.

ارتجفت هارييت ولم تستطع السيطرة على نفسها وقالت:

- اتريدني ان اكون شاكرة لك ذلك؟

التوت شفتاه. وتابع قائلاً:

- كلا. من الواضح انك لا تشعرين بالامتنان.

- هل كان هذا كل ما اردت قوله؟

- كلا!

شد على قبضتيه وتابع:

- من فضلك، اردت محاولة توضيح الأمر لك...

- التوضيح!

وتراجعت الى الوراء وتابعت:

- ماذا يمكن ان تفسر لي؟ خل عنك! اترك كل شيء.... ودعني لوحدي!

رفعت عينيها الخاويتين لتنظر اليه، لكن ما شاهدته في عينيه بعث الاحمرار من عنقها الى وجهها. رأت سواد عينيه الملطخ بلون العنبر، يقول لها انه لا يصدق كل ما شاهد وهو لا يحاول اخفاء عدم التصديق. ثم خفض نظره الى جسمها واخذ يتأمل تقاطيعها. صدمت هارييت وخجلت من نظراته الجريئة، ثم اخذت نفساً طويلاً وقالت:

- لا تنظر الي هكذا!

- وكيف انظر؟

لم يكن هناك اي دفء في صوته، واستجمعت هارييت كل قواها لاكمال ما ارادت ان تقوله:

- نظرتك غير لائقة.

فسألها:

- هل هذه المرة الأولى التي انظر اليك هكذا يا حبيبتي؟

وبدون ان تتوقف لتفكر بالعواقب تقدمت وصفعته بشدة على وجهه البارد المتهكم. وللحظات مخيفة تصورت انه سيبادلها الصفعة.

تحركت يده نحوها فجأة بعفوية ثم اوقف ردة فعله وانكمشت اسارير وجهه. وقال:

- هل تلذذت بذلك؟ هل اصبحنا الآن متعادلين؟

اجابت بصعوبة:

- لا شيء يجعلنا نتعادل. انت ... انت...

واكمل عنها الكلام:

- حيوان اناني على ما اظن، الوصف اياه.

واخذ يفرك جلد خده المحمر، وقال:

- حسناً يا هاريت، فهمت مرادك. أليست هذه العبارة المعهودة؟

تنهدت هاريت وقد نضب منها كل تهجم. نكست رأسها وهي تحس بالفراغ وعدم الجدوى وتساءلت عن خيانة الجسم للروح. هل ستتخلص يوماً ما من هذا الرجل؟

رفعت رأسها عندما سمعت صوت قدميه يتلاشى على الدرب، واحست بكتلة تستقر في حنجرتها عندما رأته ذاهباً. كان يفتح ازرار قميصه ليحس بالبرودة، يحرك منكبيه كأنه مثقل بالتعب.

كانت تصارع رغبتها بالركض وراءه. واحست بموجة شديدة من الوهن تسيطر على جسمها، فاغمضت عينيها من شدة احساسها بالتعاسة المؤلمة. يا الهي، صلت بصمت، لا تدع هذا يحدث لي!

٥ - الابن سر ابيه؟

بدا كأنها تريد ان تعبر عن شيء، لمست ذراعها، ففتحت عينيها وشاهدت سوزان تقف الى جانبها وتنظر اليها بقلق، ثم تهمس ملتاعة:

- هاريت؟ ما الذي يضايقك؟

نظرت هاريت حولها ولما تأكدت انها بمفردهما رفعت شعرها الى الوراء وهزت رأسها بعنف وهي تجبر نفسها على الابتسام. تمتمت وهي شاردة الذهن:

- انه الحر...

نظرت اليها سوزان غير مصدقة وسألت:

- ماذا قال لك السيد لاروش؟ ان وجهك شاحب.

قالت هاريت متضايقة:

- لنعد الى السيارة. اني بحاجة الى جرعة ماء.

فأجابت سوزان بعبوس:

- اذن لماذا رفضت دعوة السيد لاروش؟

عرفت هاريت انه يجب عليها توضيح الأمور، فقالت وقد استطاعت السيطرة على صوتها:

- لن نستطيع الكلام هنا. في كل حال، انه لا يدعى السيد لاروش، بل الكونت دو روشفور، صاحب القصر!

- أحقاً ما تقولين؟

نظرت سوزان الى جدران القصر وقالت:

- يا للعجب!

ثم عبست وتابعت:

- وما الذي يدعو «كونتاه» الى تنظيف الموقد؟

اجابت هارييت بلهجة جافة:

- تستطيعين ان تسألي هذا السؤال! هيا بنا يا سوزان، لنتحرك! لن نستطيع الوقوف هنا طول النهار.

عبرتا الغدير وهارييت تفكر. تساءلت ما عسى اندريه يقول لزوجته اذا ارتأى ابنه ان يخبرها عن الزائرتين الغريبتين؟ في كل حال، رد فعلها تجاه سخرية الصبي كانت تفوق الاساءة، وبول لم يكن محبولاً. وقالت لنفسها بشراسة، هذه مشكلة والده، ورفضت الاعتراف بالذنب الذي كان سيسيطر عليها.

اسرعت وراء سوزان واسنانها تصطك. انها لحمقاء، فكرت بمرارة، لتسمح لاندريه بان يتغلغل في كيانها. الم تحظ بتعاسة كافية بسببه؟ ما عساها ان تكون، هل ترضى بالألم والذل؟ كانت السيارة شديدة الحرارة، وسوزان منهمكة بفتح الشبابيك بطريقة دراماتيكية. جلست هارييت وراء المقود، وارجعت السيارة الى الوراء وقادتها نحو البيت.

سألت سوزان:

- هل سنذهب الى كاهورز؟

لكن خالتها هزت رأسها وقالت بوجوم:

- نحن ذاهبتان الى البيت.

وكرست انتباهها للقيادة فقط.

وعندما وصلتا البيت، كان من المستحيل تجنب المجابهة، وبإحساس من الحتمية اسرعت هارييت بتحضير السلطة للغداء، وهي شاعرة باستياء ابنة اختها.

وقفت سوزان في المدخل ورفعت رجلها لتضع الاخرى على برواز الباب، ثم قالت بعصبية:

- والآن! هل ستقصين علي كل ما حدث؟

ارادت هارييت ان تكسب وقتاً فأجابت:

- كل ماذا؟

تنهدت سوزان قائلة:

- لا تجيبني هكذا. انت تعلمين ماذا اقصد. بالتحديد ما هو مقدار معرفتك بالسيد، اقصد، الكونت؟

- لم اعرفه جيداً.

ثم رفعت بصرها وقالت:

- سوزان! لقد وجدت بعض الرشاد عندما كنت قرب الغدير هذا الصباح. هل بامكانك احضار القليل منه؟

بدت على وجه سوزان تعابير تمرد واجابت:

- لا اعرف الرشاد من غيره من الأعشاب.

- لا بأس سأحضره بنفسي.

قطعت هارييت المسافة الى الباب المفتوح على البهو الصغير والذي يطل على الحديقة الخلفية، وقالت:

- يجب ان نبدأ بقطع هذه الأعشاب، فاذا امطرت، سوف تبتل ثيابنا لدى السير في غمارها.

ابدت سوزان استياءها وقالت:

- اذن انت لا تريدين اجابتي.

- اوه، سوزان!

ونظرت هارييت حولها بخيبة واردفت:

- انت صغيرة جداً لتفهمي.

اجابت سوزان:

- لكنك تعرفينه اكثر مما تدعين، أليس كذلك؟

- لقد . . . خرجت معه بضع مرات.

- متى كان هذا؟

احمر وجه هارييت:

- منذ ثماني سنوات.

نظرت اليها سوزان بتأمل فانكمشت شفتا هارييت وتمتمت:

- نعم . . . كان رجلاً متزوجاً . . .

واكملت سوزان عنها وهي تعبس:

- ولديه عائلة! هل عرفت هذا ايضاً؟

فتحت هارييت الباب بقوة وقالت:

- كلا.

فتمتمت سوزان:

- ولكن هو كان يعلم.

فانتفضت هاريت. وتابعت سوزان:

- بدأت افهم الآن.

- احقاً؟

كانت هاريت تشك بذلك لكنها قالت:

- الآن سوف احضر الرشاد.

في اليوم التالي ذهبتا الى كاهورز، وابت هاريت ان تفصح لماذا اختارت هذا المكان بالذات كأول زيارة تقومان بها. ولكنها صممت ان لا تدع اندريه يتصور انها ذهبتا الى القصر لأي سبب آخر كما ذكرت. كانت الطريق الى كاهورز تمر بأرض جبلية تحد وادي نهر اللوت، ووصلتا الى المدينة فجأة، الابراج والحصون ترتفع فوق النهر بروعة من العصور الوسطى، ونهر اللوت يزنر كاهورز من ثلاثة اتجاهات. حزرت هاريت انه كان بمثابة حصن طبيعي، والجهة الرابعة يحدها سور يمتد من الشرق الى الغرب. كانت تقطع النهر عدة جسور، احدها من القرن الرابع عشر يدعى جسر فالانتر ويشار اليه في دليل السياحة انه اجمل جسر في العالم، له اقواس ضخمة من الطراز القوطي وابراج نحيلة. يشكل منظراً مهيباً. لكن هاريت كانت قد زارت البندقية، ولا شيء في نظرها يضاهي جمال قناطر الريالتو البيضاء. اما سوزان فلم تذهب الى ايطاليا، وبالتالي لا تستطيع المقارنة. التقطت عدة صور فوتوغرافية قبل ان تنتقل الى الكاتدرائية فحسدتها هاريت على سذاجتها.

تناولتا طعام الغداء في مقهى رصيفي في شارع جانبي قرب النهر حيث الطاولات مظللة بالاشجار، ومع ان هاريت كانت متعبة، احست باسترخاء لم تعهده منذ ايام. اكلتا خبزاً مقمراً ولحوماً باردة واحتستا الشراب المثلج على انغام اوكورديون شجية تختلط باحاديث الرواد. لم يكن احد بعجلة لاخلاء الطاولات وساعات الغداء انسابت بكسل. لاحقاً، توقفتا لابتياع بعض الاشياء التذكارية من بوليفار جامبيتا ثم عادتا الى السيارة وبعدها الى البيت. تأملت سوزان اطرافها النحيلة وهي تستقل

السيارة وابتسمت قائلة:

- هل تذكرين عندما ذهبت الى المتجر لتشتري الخبز؟ كنت واقفة في الخارج فغمزني احد الشبان! ما رأيك بهذا؟

ضحكت هاريت قائلة:

- قلت لك انها فقط مسألة وقت.

ثم سألتها هاريت بجدية:

- ارجو الا تكوني تجاوبت بطريقة ما؟

اعترفت سوزان بصدق:

- احمرت وجنتاي فحسب.

فضحكت هاريت وهي تدير محرك السيارة.

احستا بارتياح عندما عادتا الى البيت. خرجت هاريت من السيارة وتمطت بنشوة بعد عناء القيادة. ترجلت سوزان وبينما هاريت تجمع حوائجهما من مؤخرة السيارة، اخذت سوزان المفاتيح وذهبت لتفتح الباب، ثم هتفت وهي تلتقط ظرفاً ملقى خلف الباب:

- لقد وصلتك رسالة!

تقدمت هاريت عبر الممر رافعة حاجبيها بدهشة، فقالت سوزان:

- لا يوجد على المغلف طابع، ويوجد شيء ثقيل داخله.

احست هاريت بالتوتر يحيط بها ثانية فاخذت المغلف وفتحته. وجدت ورقة في داخله ولكن ليس عليها اية كتابة. كانت الورقة تغلف مفتاحاً سقط منها عند فتحها فأحدث صوتاً.

انحنت سوزان لتأخذ المفتاح، ونظرت اليه بدهشة ثم الى خالتها وقالت:

- انه المفتاح المرادف لمفتاحنا... والذي كان... بحوزة الكونت.

اومأت هاريت، ودخلت المطبخ. انه يشبهه، وافقت بحدة، وتبعتها سوزان الى الداخل بدون اي تعليق.

بعد يومين، وفيما هاريت في الطابق العلوي توضب السريرين سمعت اصواتاً فاقتربت من النافذة للاستقصاء. لم تستقبلا ضيوفاً باستثناء اندريه وابنه، وتساءلت مع من كانت سوزان تتكلم.

لم يدم انتظارها طويلاً اذ سمعت صوت بول لاروش الكسول،

وضحكة سوزان المتوترة. فحزرت هارييت ان الشاب كان يمارس جاذبيته على ابنة اختها السريعة التأثر.

كانت سوزان بدون شك تتمتع بهذه الفرصة لتدرب انوثتها اليانعة. وبالطبع وجدت في بول نموذجاً جذاباً لتجرب رمي شباكها عليه. بول نسخة طبق الأصل عن ابيه لكنه اصغر سناً واقل خبرة. وعندما تذكرت هارييت ماذا فعل ابوه هرولت الى اسفل الدرج.

جفلت سوزان لدى ظهور خالتها. كانت تجلس على طاولة المطبخ كأنها تقلد احدى الفتيات اللواتي يعرضن آخر ابتكار لتسمير البشرة. كانت تنظر اليه جانبياً وتبرز كل ما عندها، لكن منظر بول يوحي بانه لا يرى شيئاً جديداً. احس بول بارتياح لرؤية هارييت وعندما لاحظت الاعجاب في عينيه تنبهت لما كانت ترتديه. وخاطبها بول بتهذيب:

- صباح الخير! اني سعيد لرؤيتك ثانية.

انتصبت سوزان، وفي عينيها نظرة تحد بددت نشوتها. وقالت:

- طلب مني بول ان اذهب معه لنلعب التنس، هل تمانعين يا خالتي؟

برغم تضايق هارييت من ان آل لاروش يظنون انهم يستطيعون الذهاب والاياب بحرية، لم تستطع اخفاء طرافة الموقف، وكأن سوزان ارادت توضيح العلاقة بينهما. لم تستطع الموافقة على الطلب، فقطعت الغرفة لتملأ الابريق متفادية نظرات الفتاة المذنبة نوعاً ما. سألتها:

- اين تنويان اللعب؟

وقبل ان تستطيع سوزان الاجابة، تدخل بول قائلاً وهو يعطي ظهره لسوزان:

- توجد ملاعب من الحشيش في القصر. لماذا لا تأتين انت ايضاً؟

شعرت هارييت بجاذبية نحو الصبي لأنه يشبه والده كثيراً، ونظرت بشرود الى الابريق الذي فاض بالماء وانسكب بعضه على الارض. هتفت:

- اللعنة.

ثم مدت يدها الى قطعة قماش لكن بول كان اسرع منها فتناولها قبلها ومسح بها الأرض بسهولة وجدارة. وعندما لامست قطعة القماش اطراف اصابعها نظرت الى اسفل وفي اللحظة نفسها كان ينظر اليها. انزعجت من تصرفه، ليس لأنه في السادسة عشرة فقط وهي تكبره بعشر سنين وانما

لكونه استطاع ان يؤثر عليها.

لم تعرف هارييت اذا كانت سوزان قد تنبهت لما حدث لكن الابريق احدث ضجيجاً عندما وضعته على فرن الغاز، ولفت نظر الفتاة التي عادت تسألها:

- حسناً، هل استطيع الذهاب؟

عضت هارييت شفتيها متحاشية النظر الى بول ثم اومأت بعدم اكتراث واجابت:

- لن استطيع منعك، اذا كان هذا ما تريدين.

تنهدت سوزان قائلة:

- يا آلهي! انني بحاجة الى رياضة.

ونظرت الى بول الجالس على الطاولة وقالت:

- اعطني دقيقة لأحضر المضرب.

صعدت سوزان الدرج وحذاؤها يحدث صوتاً. احست هارييت بالارتباك حين وجدت نفسها وحيدة مع الصبي. ولتطرد هذا الارتباك، خرجت الى الحديقة وادارت وجهها لنسيم الصباح، ثم تنهدت عندما ادركت ان بول قد لحق بها ووقف خلفها.

- ما اجملك!

قال هذا بصوت منخفض بدون ان ينظر اليها كأنه يريد ان يوحي اليها بانها تخيلت هذه الكلمات. انما حين انتصب ونظر اليها تأكدت انها لم تتخيل ما سمعت. اجابته بغضب:

- لا ينبغي ان تقول لي اشياء كهذه!

ثم مسحت خدها المحمر واردفت:

- انا . . . لا احب ذلك.

اجابها:

- مستحيل!

فردت عليه:

- انا بالفعل لا احب ذلك.

- احقاً، لماذا؟

اقترب منها ولمس يدها، وسرعان ما ابتعدت عنه. هز كتفيه بلا مبالاة،

وبرزت عضلات ذراعيه تحت قميصه القصير الكمين. كان تقريباً يوازيها طولاً، وايقنت كم هو كبير بالنسبة الى الصبيان من سنه في انكلترا. وغمغم وهو يقضم عشبة ويقترب منها:

- احب الطريقة التي تلفظين بها اسمي يا هاريت.

ثم اضاف:

- لماذا لا تأتين معنا؟ انت تعرفين انني اتيت من اجلك!

قررت هاريت ان الموضوع تطور اكثر من اللازم، فإن تحس بتزلف الصبي واعجابه شيء، وان تسمح بان يتمادى معها شيء آخر، مع العلم انها منعت رجالاً في ضعف عمره من التصرف على هذا النحو معها.

- اعتقد انك تغوص في مياه اعمق منك عزيزي.

استعملت هاريت لهجة متعالية وارتاحت عندما لاحظت ان رمحها اصاب هدفه وظهر ذلك جلياً على ملامحه. لكنها لم ترَ رد فعله لأن سوزان عادت تلك اللحظة واضطر بول ان يستدير اليها.

قالت:

- انا جاهزة.

بدا صوت سوزان فتياً وبريئاً فادركت هاريت هول الورطة التي ستزجها فيها. كيف يمكن لفتاة في عمر سوزان ان تدير امرها مع شاب مثل بول. هو، برغم صغر سنه، صاحب خبرة؟ فضلت هاريت ان لا تتساءل عن مدى خبرته وقالت:

- الساعة الآن تناهز الحادية عشرة.

نظر اليها بول متأملا وتابعت هاريت:

- لقد حان وقت الغداء. ألا تظنان ان الحرارة شديدة للعب التنس الآن؟

اكفهرّ وجه سوزان وقالت بحرد:

- قلت ان لا مانع لديك!

- تصحيح... قلت لا استطيع ان امنعك.

اجابت الخالة بجفاف وقطعت مسافة الحشيش الى الباب ثم استدارت وقالت لبول بتحدٍ:

- سألتنا من قبل اذا كنا نحتاج الى مساعدتك. الآن فرصتك، ان

الحشيش بحاجة الى قص.

صرخت سوزان لكن بول لم يسمعها لأنه كان يجيب هاريت:

- اذا كنت تحتاجين الى مساعدتي فكيف أرفض؟

تمنت هاريت لو انه اجابها بكلمات اكثر لباقة، وصرخت سوزان ثانية كأنها مجروحة، ثم استدارت ودخلت البيت. نظرت اليها هاريت بقلق، وهي تتساءل ان هي اخطأت بمنع الفتاة من الذهاب معه. لكن حين نظرت الى بول قررت ان ما فعلته هو عين الصواب. ولكن الى متى تستطيع ابعادهما عن بعضهما خصوصاً اذا آثر بول ان يستعمل سوزان كسلاح ضدها؟ سألها:

- ماذا استعمل لقص الحشيش،

نظرت اليه بضيق وهتفت بسخط:

- انت لا تبالي بأحد، أليست هذه الحقيقة؟

اجابها بغضب:

- كلا. سأقلم لك الحشيش، أليس كذلك؟

- لأن ذلك يناسبك.

هز رأسه قائلا:

- كلا، هذا يناسبك أنت. والآن ماذا استعمل؟ لسانك؟

كتمت ابتسامتها وردت:

- هناك منجل في الكوخ وراء المنزل.

لم تعطه وقتاً لكي يجيب، ولحقت بسوزان الى الداخل. وجدت الفتاة مستلقية على السرير في حجرة النوم مجهشة في البكاء. وقفت هاريت مترددة على رأس الدرج، وهي تنظر الى المشهد، ثم تنهدت وتقدمت نحو السرير.

- سوزان...

لم يجبها احد، فجلست على حافة الفراش.

- سوزان.

لكن سوزان هربت منها وقفزت الى ناحية السرير الأخرى ثم استقرت مرتعشة امام طاولة الزينة.

صرخت هاريت فجأة:

- سوزان، كفّي عن النظر الي هكذا. انت تعلمين اني لست وحشاً! أنا... فعلت ما هو مناسب.

اجابت سوزان بمرارة:

- مناسب لك! ظننت انه صغير السن بالنسبة اليك!

قالت هاريت وكأنها لا تصدق ما تسمع:

- ماذا؟ انه حقاً صغير بالنسبة الي، يا الهي، لا تتصوري انني اغار منك!

- اجل! اجل! لأنك كنت تريدين ان يدعوك أنت!

- هذا هراء! انا لا ارغب في لعب التنس في حر النهار! اما السباحة فربما. ولكن ليس لعب التنس!

اجابت سوزان:

- هذا ما تقوليه أنت!

- واني أقصده.

وقفت هاريت وقالت بصوت منخفض كي لا يسمعها بول من خلال النافذة المفتوحة:

- اسمعي يا سوزان! بول لاروش صغير جداً بالنسبة الي، لكنه كبير بالنسبة اليك!

- كلا. قال لي انه في السادسة عشرة من عمره، وأنا ساصبح في الخامسة عشرة في شهر ديسمبر (كانون الأول).

نظرت هاريت الى السماء ثم قالت:

- العمر لا يقاس بعدد السنين، يجب ان تعلمي ان الخبرة هي المقياس!

مسحت سوزان أنفها بيدها وأجابت:

- وأنت خبيرة في هذه الأمور كما أظن.

- اوه سوزان!

نظرت اليها هاريت ولا عون لها ولا قوة، لكن سوزان لم تكن على استعداد للاستسلام، ومضت تتهمها قائلة:

- انت تحبين الاسترخاء طول النهار، وأنا صغيرة اريد ان أفعل شيئاً مختلفاً... ولأنك لم تتلقَّ دعوة تتظاهرين...

- كنت مدعوة.

قالت هاريت هذا بالرغم منها. فنظرت سوزان الى اعلى وأجابت:

- كلا!

- اجل.

وتنهدت هاريت وأكملت:

- لقد دعاني بول بعد صعودك الى الغرفة.

نظرت اليها سوزان بشك وقالت:

- لا أصدقك!

هزت هاريت كتفيها كأنها متعبة وقالت:

- اسأليه اذن.

استوعبت سوزان النبأ في صمت لبرهة، ثم زمت شفتيها وبدأت تقول:

- ومع ذلك...

فقاطعتها خالتها:

- ومع ذلك، لا شيء يا سوزان. اسمعي، لا أرغب بمنعك من اتخاذ اصدقاء. اذا جاء صبي او فتاة في عمرك، ساكون اول من يشجع ذلك.

- ولكن بول في عمري!

هزت هاريت رأسها وغمغمت:

- حسناً، يبدو انك لا تريدين الاصغاء الى كلامي.

واستدارت نحو الدرج، لكنها تذكرت هندامها، فذهبت الى الخزانة وسحبت تنورة وقميصاً مناسباً. نظرت اليها سوزان وهي ترتدي ملابسها بدون ان تتكلم. ولما حاولت هاريت للمرة الأخيرة ان تناشدها، استدارت واتكأت على حافة النافذة تنظر بتحدٍّ الى الحديقة. احست هاريت انها هزمت فنزلت الدرج ببطء.

كان بول يلوّح بالمنجل في الحديقة الخلفية، وقد نزع قميصه وجلده الأسمر دلّ على انه قلما يرتديه. لقد جزّ ما يقارب ستة أقدام مربعة. والعرق يتصبب من وجهه.

وبالرغم منها، أثنت عليه هاريت لانه عمل بجدّ، وسارت نحو الباب ثم سألته:

- هل تريد ان تشرب شيئاً؟

انتصب بول وابتسم قائلا:
- وهل لي ان ارفض؟
ابتسمت هارييت ودخلت المطبخ. لم يكن عندهما ثلاجة ولكي تبرد الأشياء كانت تضع قناني العصير على الأرض في مكان لا تصل اليه الشمس. أخذت كوباً كأنها تزنه ثم أعادته الى مكانه اذ أحست ان بول يفضل الشرب من الزجاجة.
اقترب منها حين عادت، فمدّت له الزجاجة وقالت:
- عندي عصير ليمون ان كنت تفضله.
لكنه هز رأسه وأخذ الزجاجة ورفعها الى شفتيه. ابتلع نصفها بجرعة واحدة، ثم مسح فمه بيده وامتدح برودة الشراب بالفرنسية كما كان يفعل حين يكونان وحيدين. ثم سألها:
- لماذا غيرت ثيابك. جسمك يسمح لك بارتداء ما تشائين. معظم الفتيات لا يستطعن ذلك.
- تقصد اللواتي في عمري؟
فاحمرّ وجهه الناضج عرقاً وقال:
- لماذا تقولين أشياء كهذه؟
ولأول مرة لاحظت انه جدّي فاستدارت ولوّحت بذراعها قائلة:
- انك تعمل جيداً، ألف شكر.
رفع كتفيه وأكمل شرابه، ثم ألقى الزجاجة الفارغة من يده وغمغم:
- تظنين اني أمارس لعبة معينة، أليس كذلك؟
تنهدت هارييت وقالت:
- أظنك تتغابى. هل يعلم والدك انك هنا؟
- وهل هذا يهم؟
- اعتقد ذلك.
- لماذا؟ الأنك تعتقدين انه لا يوافق؟
وتوقف قليلا ثم تابع:
- أم انك لا تريدينه ان يغار؟
انحبس نفسها في حلقها وقالت بصعوبة:
- لا اعرف عما تتكلم.

- كلا؟
انتصب ثانية ونظر اليها قائلا:
- انك تعرفين أبي، أليس كذلك؟
- لدي أعمال كثيرة تعيقني عن التبارز معك بالكلام.
ثم استدارت ودخلت البيت.
كانت تفرط البازلاء عندما ظهرت سوزان. دخلت تجر رجليها وأبت ان تنظر الى عيني خالتها. وسألتها بوقاحة:
- هل تمانعين اذا ذهبت وتكلمت الى بول؟
فرفعت هارييت رأسها وقالت:
- افعلي ما تشائين.
فاندفعت الفتاة الى الخارج بدون ان تزيد كلمة واحدة.
كانت الساعة تناهز الواحدة الا ربعاً حين ظهر بول في باب المطبخ وشعره الطويل متدلٍ على كتفيه بخصل رطبة وقال:
- الحشيش خلف البيت قد تم قصه. يلزمه الآن تنميق بالآلة، فهل عندك واحدة؟
هزت هارييت رأسها، فقال:
- سأحضر غداً لأقص عشب الحديقة الأماميّة اذا أردت.
- اوه بول!
تركت هارييت عملها وقالت بنظرة مشفقة:
- لا بد انك مرهق.
ثم نظرت الى خلف وأكملت:
- هل انت...؟ حسناً، هل ترغب في البقاء لتناول طعام الغداء معنا؟
تضايقت من نظرته المركزة لكنها حافظت على هدوئها. أجابها:
- من الأفضل ان أعود فلويز تتساءل حتماً أين أنا.
هذا الاسم ثانية!
- هل تريدين ان أعود غداً؟
- من المحتمل ان لا نكون هنا غداً. كنا نفكر بالذهاب الى بيناك.
- بيناك.
أوما مفكراً ثم قال:

- حسناً، لا يهم ان تكونا هنا.

تململت هارييت في جلستها وقالت بارتباك:

- أحس انه يجب عليّ ان ادفع لك أتعابك...

فغير الموضوع بقوله:

- قالت سوزان انك تحبين السباحة. تعالي لنسبح معاً بعد غد.

- بول...

- بامكان سوزان ايضا ان تأتي معنا.

نظرت اليه هارييت بتعاسة وسألته:

- أين يمكن ان نسبح؟

في النهر، اعرف مكاناً حيث الماء عميق والأشجار مظللة.

فاجابت باستياء:

- ذهبت الى هناك مرات عديدة على ما أظن؟

فابتسم بول وقال برجاء:

- قولي انك ستأتين.

- سأفكر في الأمر.

أخذ قميصه وارتداه.

- سأحضر بعد غد في حوالى الحادية عشرة.

توقف ثم تابع:

- وغداً ايضاً ان كنتما هنا أم لا.

أمطرت في اليوم التالي. لم يكن شتاء ضعيفاً مثل ما يتوقع في انكلترا، انما شتاء كثيفاً ومركزاً بدا كستار رمادي حول البيت، فغرقت الأشجار والعشب، ولم تعد فكرة السباحة واردة.

انزعجت هارييت لأنها أملت ان ترطب هذه الرحلة الجو بينها وبين سوزان، فالعلاقة بينهما كهدنة حرب. أمضت سوزان النهار مسترخية تقرأ. اما هارييت فأخذت تقوم بتجارب في المطبخ حيث خبزت كعكاً جميل المظهر لذيذ الطعم. لكنها لم تعمل من قلبها، اذ بدا لها انها تتصرف كوالدة سوزان لا كخالتها.

لحسن الحظ أشرق الطقس صباح اليوم التالي وكانت هارييت في رداء النوم حين سمعت الباب يقرع.

نظرت من النافذة قبل ان تفتحه واذا بها ترى بول واقفاً في الخارج.

فتحت الباب وبادرته قائلة:

- بكرت في المجيء.

أيد كلامها محيياً ببساطة:

- اردت ان انتهي من قص الحشيش باكراً، نحن على موعد في الحادية عشرة.

نظرت اليه باستسلام وقالت:

- حسناً، لكن لا تتصور ان تصبح هذه عادة. ستأتي معك هذه المرة انما...

تنهدت باذعان واضافت:

- تعلم أين تجد المنجل.

أخذ بول يشم الرائحة اللذيذة المنبعثة من المطبخ وسألها:

- الا تقدمين لي فنجاناً من القهوة؟

لكنها هزت رأسها وأقفلت الباب في وجهه.

هبطت سوزان الدرج وعيناها ترفان. لا بد انها سمعت أصواتاً، واحتملت عناء ارتداء بنطلون جينز وقميص. نظرت حولها باستغراب عندما رأت خالتها لوحدها، فقالت هارييت:

- بول هنا وسيقطع الحشائش في الحديقة الامامية.

سارت سوزان الى النافذة ونظرت الى الخارج.

- أين هو؟

أجابت هارييت وهي تسكب فنجاناً من القهوة:

- اظنه يأتي بالمنجل.

تريثت ثم قالت:

- هل تريدين ان تذهبي للسباحة في وقت لاحق؟

استدارت سوزان وسألتها:

- سباحة؟ أين؟

تناولت هارييت فنجان القهوة ونظرت اليه لتتفادى النظر الى الفتاة وردّت:

- يقول بول انه يعرف مكاناً دعانا اليه معاً.

هتفت سوزان بتحدٍ:
- أحقاً؟
اضطرت هاريت الى مواجهتها وردّت بالايجاب. فحدقت سوزان اليها وسألتها بتمرّد:
- وماذا لو قلت انني لا أرغب في الذهاب؟
انقبضت اصابع هاريت على الفنجان وهي تسأل:
- ألا ترغبين بالسباحة؟
- كلا. كلا لا أريد.
هبط قلب هاريت وتأوهت بعتاب:
- أوه، سوزان!
فردّت الفتاة:
- ماذا ستفعلين الآن؟ هل ستذهبين بدوني؟
- كفى يا سوزان. لن أسمح بذلك!
- ماذا ستفعلين؟ لا تستطيعين ارغامي على الذهاب. بالاضافة الى ذلك...
- بالاضافة الى ماذا؟
- انا لا اعرف السباحة.
فشهقت هاريت باستغراب وقالت:
- لا... تحسنين... السباحة؟
- كلا لم أحسنها أبداً.
- ألم يعلموك اياها في المدرسة؟
- حاولوا انما بدون جدوى. ربما أنا من هؤلاء الذين لا يستطيعون تعلّمها.
- هراء! كل انسان يستطيع ان يسبح اذا حاول.
وضعت هاريت فنجان القهوة وعبرت الغرفة مضطربة ثم استدارت قائلة:
- سوزان، تعرفين انني لا أريد الذهاب معه بمفردي.
فهزت سوزان كتفيها بانزعاج وقالت:
- هذه ليست مشكلتي.

تمالكت هاريت أعصابها كي لا تصفعها، وفي الوقت نفسه أعجبت بها لأنها استغلت الموقف بنجاح. قررت هاريت ان لا جدوى من مناشدتها لتغير رأيها. فغسلت وجهها وأسنانها فوق المجلى، ثم ركضت الى فوق لترتدي ثيابها. كان عليها ان تجد حلاً للخروج من هذا المأزق انما لم تعرف في هذه اللحظة كيف يجب ان تتصرف.

٦- نزوة مراهق

لما عادت هاريت الى الطابق السفلي وجدت الباب مفتوحاً وسوزان قد اختفت، فحزرت انها ذهبت لتتكلم الى بول. ابتلعت قهوتها الباردة ووضعت الفنجان في المغسلة. نظرت الى ساعتها، انها التاسعة! لديها ساعتان لتجد عذراً لعدم مرافقته.

كان الصباح جميلاً للبقاء في الداخل، فخرجت وهي تأخذ نفساً عميقاً، وتتلذذ برائحة زهور الميموزا النامية بوفرة تحت النوافذ. رأت بول على مبعدة يطرّح المنجل بانتظام وهو يقطع الأشواك المتشابكة والأعشاب المرتفعة تحت السياج، انما لم تر اثراً لسوزان.

وكالمعتاد انتصب بول واقفاً لدى رؤيتها وقال:

- ساعة اخرى وأنتهي من المهمة.

اومأت هاريت وهي تتطلع حولها قلقة وسألته:

- هل رأيت سوزان؟

- اجل. طلبت الي ان ابلغك انها ذهبت للتنزه.

احست هاريت برعشة وفقدان صبر. هكذا اذن؟ حسناً، ستعرف كيف تجاريها في هذه اللعبة!

رأت بول يتابع النظر اليها، فاندفعت تقول:

- هل تريد بعض العصير الآن؟

صوّب المنجل الى الارض المكسوة بالعشب فسقط من يده على التراب وبرز كأنه علامة استفهام كبيرة. ثم مسح الشاب يديه على بنطلونه وعبر فسحة الحشيش باتجاهها.

تراجعت هاريت نحو البيت وقد ندمت على دعوتها له. دخل وهو يزيح شعره المبلّل عن جبينه، فتناولت علبة من الزاوية، ولما وجدت انها تحتوي عصير ليمون تناولتها لكنها سقطت من يدها فشتمت بصوت منخفض وهي تلتقطها ثانية. راح بول ينظر الى هذا المشهد باهتمام، واقترب منها وهي تهمّ بفتح العلبة، قائلاً:

- دعيني اقوم بذلك.

لكنها رفضت طلبه وشدت بعنف على حلقة العلبة فافلتت من يدها وطرطش العصير الذي بداخلها صدر بول.

فشهق واضعاً يديه على صدره، وزال التوتر حين انفجرت ضاحكة، وظلت تضحك حتى دمعت عيناها، فخطف بول العلبة من يدها وتقدم يهدد بصبّ ما تبقّى فيها فوق رأسها. اخذت تتراجع وهي ما زالت تضحك ثم احست ان شيئاً ما يحجب النور عن الباب. التفتت الى الباب وهي تحس بالانقباض المعهود الذي ينتابها كلما رأت اندريه. التغير في ملامح وجهها انبأ بول، فنظر حوله، وصاح صيحة تعجب وتوقف عن اللعب واضعاً العلبة على الطاولة واستدار ليواجه أباه.

انتصب اندريه من اتكائه على حاجب الباب، وتساءلت هاريت منذ متى وهو يراقبها. ثم دخل الغرفة وتعجبت حين رأت سوزان خلفه. قال يسأل ابنه:

- ماذا تفعل هنا يا بول؟

تكلم بالانكليزية لتفهمه سوزان، واردف:

- فهمت من لويز انك تقوم بعمل مؤقت.

- اجل.

وضع بول اصابعه داخل حزام بنطلونه، وشعرت هاريت بلهجته العدائية، فتدخلت قائلة:

- ابنك كان بغاية اللطف اذ قصّ العشب في الحديقة الامامية والخلفية.

قطب اندريه حاجبيه قائلاً:

- هكذا اذن.

اتخذ الشاب موقفاً مهاجماً، ونظره يرف بغضب في اتجاه الفتاة الواقفة خلف والده وسأله قائلاً:

- هل اخبرك احدهم عكس ذلك؟

ارتجف فم سوزان لكنها لم تقل شيئاً. وفهمت هاريت بخوف ان بول قد اصاب الحقيقة، فقالت للفتاة بخيبة:

- اوه سوزان! لا يعقل ان تفعلي ذلك!

لكنها فهمت من وجه سوزان المحمر انها المذنبة. كبح اندريه جماح غضبه وقال بهدوء:

- أنت ابنة اختك لتقول لي ان ابني هنا.

وتساءلت هاريت كم اختصر من نميمة سوزان. وتابع اندريه قائلاً لابنه:

- بول، جدتك تنتظرك لتصطحبها في نزهة. ربما الآنسة انغرام تسمح لك بانهاء قص العشب في يوم آخر.

ارتبكت هاريت وقالت:

- لم اعرف هذا. كان عليك يا بول ان تخبرني!

فسألها بول بغضب:

- وهل تصدقين هذا الزعم؟

لكن والده وضع يده على كتفه فحاول بول نزعها متمتماً:

- حسناً، حسناً، انا ذاهب!

غمز بول هاريت ثم نظر الى سوزان نظرة قاتلة، وخرج من المطبخ وخطف قميصه وهو يمر بالدرب. لاحقته سوزان بنظرها وشفتاها ترتجفان. لكن هاريت لم تشعر بالشفقة نحوها، فهي ذهبت الى القصر واحضرت اندريه لتمنعها من الذهاب الى السباحة، وفي هذا التصرف نوع من الحقد. قالت لها:

- من الأفضل يا سوزان ان تصعدي الى غرفتك.

وركضت سوزان وهي تشهق واغلقت الباب خلفها بعنف.

بقيت هاريت لوحدها مع اندريه ونظرت اليه بعدم ارتياح متسائلة لماذا بقي، وان كان يتوقع منها اعتذاراً ما... كان يرتدي بنطلوناً يشبه بنطلون ابنه انما بدل القميص.. يلبس صدرية بدون اكمام تظهر عضلاته القوية. كان يقوم ببعض الاعمال، والبقع على وجهه ويديه تدل على ذلك. لم يقم بأية حركة تنبىء بانه ينوي الذهاب. اخذت هاريت نفساً عميقاً

ثم قالت:

- اعتذر ان كان بول يهمل عائلته. هل انت. . .

ولم تكمل اذ انفجر اندريه يهتف حانقاً:

- ماذا تحاولين ان تفعلي بي يا هارييت؟ لقد أتيت هنا وسكنت في بيتي! هل تتوقعين مني ان اتجاهل وجودك كما لو كنت غريبة؟ هل تظنين انني مصنوع من الخشب؟

هجومه كان غير متوقع، ولم تكن هارييت مستعدة له! فاحتجّت قائلة:

- انا ما دعوتك الى المجيء هنا!

لكن اندريه لم يستمع لكلامها. كانت عيناه تلتهمانها وتشعلان الاحرار في وجنتيها وتهزان كيانها. وحين خفض نظره استدارت فجأة لأنها لم تحتمل تأثيره عليها. وقالت بصوت خافت:

- من الأفضل ان تذهب.

- لماذا؟

احسته يقترب منها ويقف وراءها، وتابع يقول:

- ان كنت ترحبين بابني هنا فلماذا لا ترحبين بي؟

- كلا . . .

مات احتجاجها المفاجىء حين لمسها. الحائط كان خلفها ولما حاولت الابتعاد عنه، التصقت بالطلاء الجديد. احست بالبرودة تسري في جسمها الحار العارق من الخوف.

وفجأة استعادت رشدها حين سمعت صوت خطى سوزان تجوب الطابق العلوي.

وتساءلت برعب، الم تتعذب بما فيه الكفاية على يد هذا الرجل؟ هل فقدت رشدها لتسمح له بأن يقترب منها الى هذا الحد؟ ثم ان سوزان قد تهبط الى المطبخ في أي لحظة. . . قالت بصوت خافت:

- كلا، كلا!

اضافت وهي تحاول اخفاء الرجفة في صوتها، وقد ادركت مبلغ سيطرته عليها:

- ارجوك، اريدك ان تذهب الآن.

فأجابها بنظرة ساخرة:

ـ لماذا؟ لقد فات الوقت ولا يمكنك التظاهر الآن بانك لا تبادليني الرغبة نفسها.

ـ اخرج من هنا!

لم يتحرك ليخرج انما انتصب قليلاً وفرك شعر صدره الأجعد الداكن وقال:

ـ فاصل شيق، مع انه غير مرض. ماذا كنت تنتظرين مني يا هارييت، اخبريني؟ كان يجب ان تعرفي منذ البداية اني لست رجلاً مهذباً... أليس كذلك؟

ـ نعم، نعم، كان عليّ ان أعلم.

وأكملت بمرارة:

ـ اوه، ارجوك ان تذهب.

ـ أهكذا تعزّين نفسك لأنك لم تضعفي هذه المرة؟

تقدم نحوها فتراجعت الى الوراء خائفة، قال:

ـ استرخي يا هارييت! لقد تلقيت الدرس الكافي لهذا اليوم. لا تقولي ابداً ان احداً من آل لاروش لا يعرف متى يجب ان يستسلم، لكن لا تتصوري انه بامكانك ان تلعبي هذه الألاعيب معي.

لقد أفلتِّ هذه المرة فقط لأنني سمحت لك بذلك!

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت:

ـ انا... انا لا افهم كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة! انا...

وبللت شفتيها الناشفتين:

ـ لا اريد رؤيتك بعد الآن، هل تفهم؟

عيناه اسودتا غضباً واجاب:

ـ انت حمقاء يا هارييت.

لم يقل كلمة ثانية ثم استدار وغادر البيت.

بعد ذهابه، تحركت هارييت على ساقين بدتا عاجزتين عن حملها. لم تواجه موقفاً كهذا ابداً، وحاولت نسيانه فلم تستطع. هل جلبت كل هذا لنفسها؟ هل اشعل تصرفها الأحاسيس القديمة التي كانت بينهما؟

حركة على الدرج اعادت اليها رشدها فرأت سوزان تتربص خلف الباب المشقوق. طغى الغضب على أحاسيسها لأن الفتاة كانت مسؤولة

عما حدث. لكن هل تستطيع ان تلوم سوزان؟ كيف تلوم احدا سوى نفسها؟ وقالت بعصبية:

ـ ادخلي! هيا، ادخلي!

فدخلت سوزان المطبخ وعيناها الحمراوان تشهدان على التعاسة التي تشعر بها. قالت بصوت متهدج وهي تحاول الكلام بوضوح:

ـ هارييت! انا... اعتذر.

تساءلت هارييت عما تعتذر! هل لأنها جاءت باندريه الى هنا؟ ام تعتذر عن الحادثة التي جرت عند قدومه؟

حاولت ان تتصرف بشكل طبيعي، رفعت يديها لتلمس شعرها الحريري وقالت بسرعة:

ـ يجب ان تكوني نادمة، لكن ما حدث قد حدث، واسترحت على الأقل من مشوار السباحة.

تلكأت سوزان عند باب الدرج وسألت:

ـ هل اردت الذهاب فعلاً؟

تنهدت هارييت قائلة:

ـ اظن يا سوزان اننا انتهينا من هذا الموضوع، ومن الأفضل ان نقوم باعمال الحديقة.

أليس كذلك؟

اخذت هارييت تضرب المنجل. وافادها هذا العلاج، فيما راحت سوزان تجمع العشب وتكوّمه في مؤخرة الحديقة. ثم ارهقهما العمل فتوقفتا من شدة الحر وراحتا تستحمان في الجدول وتستمتعان بالماء البارد العذب ينساب على جسميهما. كان صباحاً طويلاً وستعقبه نهاية نهار أطول.

وعند المساء، بينما هما تستعدان للنوم، قالت سوزان:

ـ هناك كدمة على ذراعك.

فارتدت هارييت قميصها بسرعة لأنها تعلم بوجود رضوض عديدة على جسمها ولم تشأ ان توضح لسوزان سببها.

كان ممكناً في الأيام المقبلة ان توهم نفسها بأن الاسوأ قد ولّى بعدما حصلت المواجهة التي توقعتها منذ اللحظة الاولى التي شاهدت فيها اندريه، وصار عليها الآن ان تتابع حياتها وتتناسى كل من يمت بصلة الى

عائلة لاروش، لكن في اوقات الفراغ كانت هذه الافكار تعاودها ولم تستطع كبتها، واصبح النوم مهمّة اكثر منه ضرورة.

أبدت سوزان استعداداً لتخفف عنها. كان واضحاً انها نادمة على ما فعلت، ومع انها لم تدرك انها هيّجت الأفعى في وكرها احست ان الواقعة التي حركتها قد احدثت مضاعفات لم تدرك عواقبها. وتساءلت هاريت اكثر من مرة، هل علمت سوزان ماذا كان يجري في الطابق السفلي، ام تصورت انهما كانا يتشاجران؟ تمنّت بمرارة لو انهما تشاجرتا طوال الوقت كي يسهل عليها النسيان.

لقد أتتا الى الدوردون لتشاهدا المنطقة وصمّمت هاريت على ان تفعلا ذلك فزارتا قصر روكامادور الذي يقف برشاقة فوق وادي الالزو وسارلات بجدرانه الصفراء وقرميده الأبيض، وزارتا بريجو، عاصمة البريجور، وكاتدرائيتها ذات القباب وأبنيتها القديمة الجميلة. واخيراً برجوراك حيث قامتا بزيارة الى كروم العنب. أجمل نزهة تذكرها هاريت، كانت الى مغاور بشميرل، حيث دهاليز الكهف تهبط الى اكثر من ميلين نحو الوادي السحيق وتتحول الى غرف. كانت حلم علماء الكهوف لأنها تحتوي على رسوم لحيوانات كانت تجوب الأرض منذ اربعين ألف سنة.

شاهدتا كذلك آثار اقدام متجمدة لانسان ما قبل التاريخ، محفوظة الى الأبد في طين كربوني مترسّب. وحين خرجت هاريت من المغارة، غمرتها نشوة واحساس بخلود الانسان. لو استطاع المرء ان يطبق الدروس على حياته الخاصة لأدرك سخافة مشاكل الانسان بالمقارنة مع هذا المقياس التاريخي الطويل.

بعد انقضاء اسبوع على اللقاء الرهيب مع اندريه ذهبت هاريت تشتري بعض الأغراض في روشلاك فأوشكت ان تصطدم ببول. كانت خارجة من دكان الحلويات والشمس في وجهها، فأخذت تبحث عن نظاراتها عندما ظهرت قامة طويلة امامها. بدأت تعتذر لكنه بادرها قائلاً:

- مرحباً هاريت.

- بول!

دفعت بنظارتها على أنفها، ونظرت اليه بدهشة:

- بول!

حست بعدم الارتياح وقالت:
- انها لمفاجأة.
- حقاً؟
نظر حوله ثم سألها:
- هل انت وحدك؟
نقلت سلّتها الى ذراعها الأخرى واجابته:
- اجل، سوزان تأخذ حمام شمس فالطقس في غاية الجمال.
- أجل.
ادخل ابهامه في جيب بنطلونه الخلفي وبدا مكتفياً بأن يقف معها وينظر اليها بينما يشاهده نصف سكان روشلاك الحائمين حولها باهتمام. وفكرت هاريت بانزعاج، هؤلاء الناس يعرفون من هو... ثم أرغمت نفسها على الابتسام قائلة:
- حسناً، سررت لمشاهدتك ثانية يا بول...
- هيا، تعالي نتناول كوباً من العصير او فنجاناً من القهوة ان كنت تفضلين.
هزت رأسها قائلة:
- كلا لا اظن...
- لم لا؟ تذكري انك مدينة لي بشيء.
تحركت هاريت بضيق وقالت:
- بول، انت تعلم انها فكرة غير لائقة.
- أبسبب والدي؟ أنا اعلم لأنه اخبرني.
اندهلت هاريت وقالت:
- ماذا أخبرك؟
- اخبرني انكما تعرفان بعضكما منذ سنين عديدة! وانك لا تحبينه.
يا الهي! احست هاريت بالضعف. أهذا ما قاله اندريه لابنه؟ اهذا ما قاله لزوجته؟
- اذن..
بدأت بالكلام لكن بول قاطعها ثانية:
- والدي ليس هنا، ولا موجب لأن يعلم وان علم...

وبسط يديه دلالة على اللامبالاة.
ترددت هاربيت وقالت:
- بول، انني متأكدة ان هناك فتاة اخرى تتوق لكي تدعوها...
فأجاب بحنق:
- كسوزان مثلاً؟
تنهدت وردت:
- حسناً، حسناً، سأتناول فنجاناً من القهوة معك.
اختفى التوتر من صوته، وسار معها الى حيث مقهى السيد ماكون الذي بادرها قائلاً:
- كيف حالك؟
لم تستطع هاربيت اخفاء ابتسامة اسى وقالت بجفاف:
- استطيع القول انني لست بحال احسن لأنني رأيتك.
وعندما أحست انها جرحت شعوره صححت ما قالته:
- كلا. انا على ما يرام. كيف حالك انت؟
كانت الطاولات منتشرة تحت الشمس، فاختار بول احداها، وطلب من احدى المضيفات ان تأتيهما بقهوة فنظرت الى هاربيت باعجاب قبل ان تذهب. وسألته هاربيت بمكر وهي تسند مرفقيها على الطاولة:
- هل تعرفها؟
نظر اليها بارتباك ثم اجاب وهو يجعد انفه باحتقار:
- ليز؟ انها فارغة الرأس... اما انت...
قاطعته هاربيت قائلة:
- انسني الآن، هل اصطحبت جدتك الكبيرة في نزهة؟
اجاب بحنان:
- لويز؟ اجل اخذتها.
لم تستطع هاربيت منع نفسها من سؤاله:
- لويز؟ أهذا اسم جدتك؟
اومأ بول:
- لويز ماري تيريز لاروش. انها جدة والدي.
- فهمت.

- هل ترغبين في لقائها؟
- كلا.
وهزت رأسها بسرعة. كان هذا آخر شيء تريده، وتابعت متلعثمة:
- أقصد... لم احلم بـ... بـ...
- ... ان تزوري بيت أبي.
تنهدت هاربيت:
- شيء كهذا. حسناً، لقد جاءت القهوة. يا لرائحتها الزكية.
قدوم المضيفة منحها فترة استراحة من اسئلة بول الشاقة. وافتعلت هاربيت اهتماماً بالغاً بفنجان القهوة، لكنه عاد الى الحديث فجأة:
- قال والدي انك تعيشين في لندن.
فاضطرت ان تنظر اليه:
- حقاً؟ نعم انني أقيم هناك.
وضع بول يديه على الطاولة وتابع:
- أظن انك تصادفين اشخاصاً شيقين في سياق عملك؟
- بعضهم.
أحست انها اصبحت على ارض متينة وسألته:
- هل تهتم بالتحف القديمة؟
هز بول رأسه قائلاً:
- كلا! لكنني أحب العيش في لندن.
نظرت ثانية الى فنجان القهوة وقالت بحزم:
- ثق انك لن تحب ذلك.
- كيف يمكنك التكهن بهذا؟ ان لندن هي المكان الذي يجب ان يذهب اليه كل شخص يسعى الى الشهرة.
- الناس المجهولون في لندن اكثر بكثير من المشاهير.
- ربما ليس لديهم طموح.
- وأنت؟
فأومأ بحرارة وقال:
- بالطبع أنا طموح.
اجابته هاربيت عابسة:

ـ وماذا ستفعل في لندن؟
ـ ساجد عملاً. ساعزف على الغيتار.
ـ فهمت. أنت تعزف على الغيتار، اذن دعني أقول يا بول انه يوجد مئات من الشبان مثلك في لندن. . .
ـ هذا ما يقوله لي والدي، لكنه لا يعلم انني أجيد العزف عليه. اعرف انني جيد. ليتني استطيع الذهاب الى لندن، وأحظى بعمل في فرقة موسيقية. . .
ـ لماذا لا تفعل ذلك في باريس؟
ـ لأنني اريد الذهاب الى لندن.
انتهت هاريت من احتساء القهوة وقالت:
ـ يجب ان انصرف الآن.
اخذت حقيبتها من السلّة، لكنه تدخل عندما رآها تفعل ذلك وقال:
ـ أنا سأسدد الحساب.
فلم تعترض هاريت.
كانت الساحة الصغيرة مزدحمة اكثر من المعتاد، وأوضحت انها تركت السيارة في خارج القرية.
ـ اشكرك يا بول على ضيافتك.
الا انه لم يستأذن بالانصراف وقال باصرار:
ـ سأتمشى معك.
واضطرت الى القبول. كانت الشمس حارة جداً وما لبثت ثيابها ان التصقت بجسمها. لكنها لم تتمهل في السير اذ أرادت ان تفهم الشاب انها لا تنوي ان تتأخر. تساءلت عن ردة فعل تشارلز لو رآها الآن وهي تمشي في روشلاك مع ابن اندريه.
وحالما وصلت السيارة فتحت الباب والقت بالسلة على المقعد الخلفي.
وقف بول ينظر ويده في جيبه. ابتسمت هاريت وهي تفتح الباب الامامي وقالت:
ـ حسناً. . . الآن استودعك الله.
ادار بول وجهه للشمس قائلاً:
ـ الحر شديد للغاية.

ـ اجل.
ـ والدي يعمل، لماذا لا تأتين الى البيت للقاء لويز؟
انقبض قلب هاريت وردّت:
ـ لا استطيع ذلك.
ـ لن تري ابي، اعدك بذلك، انهم يقطفون الثمار وسوف يغيب طول النهار.
فقالت وقد وجدت مبرراً للخلاص منه:
ـ ولماذا لا تعاونه؟
قطب الشاب وردّ بامتعاض:
ـ هذا يوم راحتي، والعمل في الحقول يؤذي يديّ.
صعدت الى السيارة بتصميم وقالت:
ـ آسفة يا بول انما يجب ان اعود خشية ان تقلق سوزان.
اغلقت الباب وراءها، وانزلت الزجاج برغم جو السيارة الخانق وقالت:
ـ الى اللقاء.
ابتعد بول قليلاً ورفع يده لتحيتها، فانطلقت بشعور من الهرب لكنها شاهدت وجه الصبي الحائر في المرآة، فخالجها احساس مزعج بأن هذه لن تكون المرة الأخيرة التي ستراه فيها.
غمرتها الحيرة وهي تقود السيارة وفكرت بالشاب.
لم يذكر والدته، ولا امكانية وجود اخوة او اخوات. جدته الكبرى هي الشخص الوحيد الذي ذكره عدا والده ولا بد انها في سن متقدمة جداً، في الثمانين على الأقل، وتبدو كأنها ذات اهمية في العائلة. بالطبع، العائلات الفرنسية تختلف عن العائلات الانكليزية، فهنا يُنظر الى المسنّين باحترام ووقار، وتُطلب آراؤهم وتُعتبر قيّمة. للخبرة معنى هنا، وربما لذلك احب بول جدته الكبرى واحترمها، لكن ماذا عن والدته؟ وهل لأندريه امرأة اخرى؟ ففي هذه البلاد من الطبيعي ايضاً ان تكون للرجل امرأة اخرى.
وهنا انتقدت هاريت نفسها بألم واضطرت الى الاعتراف بأنها فضوليّة.
لم تجد اثراً لسوزان عندما قادت سيارتها على درب البيت واحست برعشة خوف. لقد تغيبت اكثر من ساعة وبالتأكيد لم يحصل شيء في اثناء

غيابها. . . كان من عادة سوزان ان تخرج لملاقاتها ولم تفعل هذه المرة.

اوقفت السيارة، وخرجت مسرعة دون ان تأخذ السلة من المقعد الخلفي، ومشت بسرعة على الممر ودخلت البيت وهي تنادي:

ـ سوزان. . سوزان. اين انت؟

لقد شاهدت بقعاً مخيفة على ارض المطبخ وتخيلت انها من الدم ثم سمعت انيناً صادراً من الصالون. ذهبت لتستخبر الامر وساقاها ترتجفان. توقفت عند باب البهو الصغير وشهقت بخوف. كانت سوزان مستلقية على الأريكة شاحبة الوجه والدم ينزّ من ربطة تحت ركبتها. صرخت هاريت:

سوزان!

وشعرت بغثيان من منظر الدم.

ـ يا الهي!

أحست بخور في ساقيها فاتكأت على حاجب الباب. وللحظات قصيرة شعرت ان الغرفة تدور حولها من تأثير الصدمة والحر الشديد. وهتفت سوزان متعبة:

ـ هاريت. . . كم انا سعيدة لأنك عدت. . . كنت خائفة جداً.

فاندفعت نحو سوزان لتقدم لها العون بقدر المستطاع وعيناها تنظران الى الجرح لترى مدى خطورته. كيف حصل هذا؟ من البديهي ان سوزان جرحت رجلها ولكن أين؟ وبماذا؟ وبدا ان سوزان لن تتوقف عن البكاء ابداً، فهتفت خالتها اخيراً:

ـ حبيبتي، هيا، اخبريني ماذا جرى؟

شهقت الفتاة فناولتها هاريت منديلاً وأيقنت انه من اللازم الاسراع باتخاذ اجراء ما لأنها كانت تنزف كثيراً. وقالت سوزان بفزع:

ـ انه المنجل. . . كنت احاول قطع ما تبقى من العشب. . . الخشيش الذي لم يكمل بول قصّه.

أحست هاريت بموجة من الهلع تسيطر عليها وصرخت:

ـ المنجل!

ان مطلق حادث يمكن ان يكون خطيراً وهما على بعد اميال من اي مستشفى، ولا تعلم ان كان هناك بالجوار طبيب. يجب ان تتصرف بسرعة ولكن كيف؟ قالت لنفسها، اسرعي في التفكير، وتصرفي بهدوء. لا تدعي

سوزان ترى انك تفقدين رباطة جأشك.

ركعت على الارض وهي تبتسم لسوزان مشجعة، ثم نزعت الرباط برفق لتكشف الجرح، ووجدته اسوأ مما تصورت، اذ يبلغ طوله بضع بوصات ويلزمه تقطيب، ولم تستبعد خطر الالتهاب لأن المنجل ملوث.

ـ يجب ان أضع عصبية حول ساقك لايقاف النزيف.

قالت هذا بصوت عادي، ثم اضافت:

ـ يجب ان تذهب الى الطبيب.

كانت تحاول ان تظهر براعة فيما تفعل وتوحي بالاطمئنان للفتاة. لم تكن تخاف منظر الدم، لكنها لم تر في حياتها جرحاً كبيراً ونزيفاً شديداً كهذا ولم تكن لديها خبرة بمثل هذه الأمور. ليس في البيت خزانة ادوية، وكل ما لديها بضع حبّات من الاسبرين ولا شيء آخر يساعد على تخفيف آلام سوزان. كانت سوزان تثق بما تفعله خالتها وهي تتكلم بلطف انما بقلة معرفة بالعصبية الضاغطة التي تقطع النزيف. تذكرت انها قرأت في مكان ما ان قطع الدم ممكن ولكن لوقت محدد والا اصيب العضو بالغنغرينا. ارتعشت لهذه الفكرة المرعبة. اذا خسرت سوزان ساقها من جراء ذلك فسوف تلوم نفسها الى الأبد. لقد عصبت ساقها بجورب من النايلون وشدته حتى انقطع النزيف. لكن وجه سوزان كان شاحباً جداً.

قالت الفتاة بارتعاد:

ـ آسفة لأنني لطخت الأريكة.

لكن هاريت طمأنتها قائلة:

ـ لا تهتمي للمقعد، يجب ان احملك الآن الى السيارة.

ـ الى اين ستذهب؟

ـ لنجد طبيباً.

لكن الفكرة مشكوك فيها ومع ذلك يجب ان يكون هناك طبيب في روشلاك.

بالرغم من نحولها كانت سوزان ثقيلة الوزن على هاريت وبعد عدة محاولات فاشلة ومؤلمة قالت سوزان بشيء من الواقعية:

ـ يجب ان امشي.

لكن حين حاولت النهوض فقدت وعيها تقريباً فقالت لها خالتها:

- ابقي حيث انت.
تطلعت اليها سوزان بلهفة فتنفست بعمق واردفت:
- ساذهب. . . لآتي بشخص يساعدنا.
استلقت الفتاة على الوسائد وسألتها:
- بمن ستأتين؟
فردّت بصوت فاتر وقد غلبت على أمرها.
- سآتي ببول.

٧- انتظار في المستشفى

كان المشوار الى القصر كالكابوس. لم تذهب اليه من البيت من قبل فعلقت في الشوك والنباتات الزاحفة واضطرت الى تغيير طريقها وسلوك الطريق المحاذي للغدير. ربما كان الأمر سهلاً لو لم تكن يائسة، لكن السير استغرق وقتاً طويلاً، ومعرفتها الضئيلة بجغرافية المكان لا تتيح لها اضاعة مزيد من الوقت.

لمّا وصلت الجسر الذي يمر فوق الجدول تحسنت الدرب. كانت تحس الحرّ وتتصبب عرقاً، ويداها متسختان ومخدوشتان من مصارعة الاشواك. أزاحت شعرها الى الوراء واستمرت في السير مع انها تاقت الى تغطيس وجهها في الماء البارد. بعد تسلّق آخر وصلت الهضبة الموازية لأسوار القصر. استجمعت قواها، وسلكت الدرب الممتد الى الجهة الامامية من البناء. هل تجد بول في البيت؟ لقد تركته منذ ساعة تقريباً في روشلاك، فهل عاد الى البيت، واذا لم يفعل، بمن ستستنجد؟

بوابات القصر الكبيرة تبدو كحارس فخور بآثاره، من المستحيل ان لا يتأمل المرء الجدران المكلّلة بالشرفة الرائعة. كانت تقصد البيت ذا الجدار الخلفي الملتصق بحصن القصر وخارت قواها عندما رأت الباب المقوّى بالقطع الحديدية والجرس المتدلي بقربه. ماذا عساها تقول؟ كيف تعرّف عن نفسها؟ طلبت من الله ان يكون بول هناك!

دقت الجرس الذي رنّ بحزن بين جدران البناء الحجري، ووقفت تنتظر حتى يأتي احد ويفتح لها الباب، لكن الصمت دام طويلاً بعد ان سكن طنين الجرس، فدفعته ثانية وقد فقدت ما بقي عندها من صبر لتعود

لسوزان. ولما استمر الصمت كادت تقفل راجعة والدموع تملأ عينيها، فسمعت صوت مفتاح في قفل الباب فاستدارت وحلقها جاف ومطبق، بينما البوابة الكبيرة تتأرجح الى الداخل، ظهرت سيدة عجوز تتكىء على عصا من الفضة، وسألتها بالفرنسية:

ـ نعم؟

استجمعت هارييت هدوءها بصعوبة. لا بد انها لويز، ورأت انها لا تبدو عجوزاً كما توقعت.

ـ انا...

بدأت كلامها بالانكليزية ثم انتقلت الى الفرنسية:

ـ انني آسفة لازعاجك سيدتي، لكنني أريد التكلم مع حفيدك بول.

عبست السيدة العجوز، وحدقت اليها بعينين رماديتين تشبهان عيني اندريه.

ـ لماذا تريدين محادثة حفيدي يا آنسة؟

فصرخت هارييت بيأس:

ـ أوه، ارجوك، اهو هنا؟

وتابعت موضحة:

ـ حدث لابنة اختي حادث، جرحت ساقها ويجب ان اصطحبها الى الطبيب. لكنني لا استطيع حملها من دون عون.

هزّت العجوز رأسها ببطء، وقالت:

ـ آه، لا بد انك الآنسة انغرام أليس كذلك؟ وأنت التي اشتريت المزرعة القديمة.

ـ اجل، اجل.

لم يكن لديها وقت لتبادل المجاملات.

ـ هل بول هنا؟

ـ كلا ليس هنا.

غرقت آمال هارييت عند سماع كلماتها، وقالت العجوز:

ـ انه في روشلاك يا آنسة.

ـ هل يوجد احد بامكانه مساعدتي؟ اخوه مثلاً او والدته؟

ـ ليس لبول أخوة يا آنسة ولا أخوات. لو كان الامر كذلك لتنافس

معهم على ارضاء ابيه.

لم تستطع هارييت ان تتأخر. فاستأذنت بالانصراف وقالت:

ـ ان لم اجد احداً هنا بامكانه مساعدتي، فيجب ان اعثر على من يساعدني...

هزّت السيدة العجوز رأسها قائلة:

ـ أي، اي، اي، انتم الشباب ليس لديكم الوقت لتقفوا وتكلموا سيدة عجوزاً.

ـ الأمر ليس كذلك.

نظرت هارييت اليها مستسلمة واردفت:

ـ ابنة اختي لوحدها وعليّ احضار احد لاسعافها.

ـ آسفة يا آنسة.

هزّت العجوز رأسها، واستدارت بحركة متأنية وأقفلت الباب في وجهها.

وقفت هارييت تنظر الى الباب مشدوهة ثم استدارت وعادت ادراجها على طريق الوادي. كان فمها جافاً، وتاقت لشربة ماء انّما لا وقت الآن. راحت تمشي وتنظر حولها متسائلة اذا كانت ستلتقي احداً. لكن الأحراج كالغدير مكان معزول، تستعمله الطيور والحيوانات اكثر مما يستعمله البشر.

واخيراً وصلت الدرب وشاهدت المنزل امامها. كان يبدو هادئاً وحالماً في حرارة الظهيرة، فلم تنتبه لمحاسنه... يجب ان تتدبر الأمر مع سوزان لتصلا الى السيارة، ثم يصبح الأمر سهلاً لايجاد عون. ربما الآن بعدما ارتاحت سوزان تستطيع المحاولة.

دخلت هارييت المطبخ وأحست بالارتياح. لقد تركت نظارتها الشمسية في السيارة وارتاحت حين شعرت بالظل. تقدمت نحو باب الصالون ووقفت بذعر عندما رأت ابنة اختها تبدو فاقدة الوعي! لسبب ما حاولت ان تجرّ نفسها من على الاريكة وفي اثناء ذلك انفك الرباط فسقطت على الارض وعاد الدم ينزف من ساقها.

ـ يا الهي!

وضعت هارييت يدها على فمها. لا تستطيع تحريك سوزان لوحدها الا

اذا جرّتها الى السيارة. اسرعت الى الامام وخرّت على ركبتيها قرب الفتاة البائسة وفي لحظة عصبت ساقها مجدداً وعندما لم تتحرك سوزان وقفت تنظر اليها يائسة. لم تجرؤ على تركها وحدها خشية ان تستيقظ وتلحق بنفسها ضرراً ما. يجب عليها بأية طريقة ان تأخذ الفتاة الى السيارة وربما من الأفضل ان تبقى فاقدة الوعي لان الذي ستفعله هاريت قد يؤلمها.

قررت انها تحتاج الى بساط، واذا استطاعت ان تضع سوزان على البساط ثم تجرّها الى السيارة، ربما الأمر اسهل. عادت الى المطبخ. قطع السجاد التي اشترتها لهذه الغرفة صغيرة جداً، لكن جلد الخروف بين السريرين قد يصلح اكثر.

ركضت تصعد الدرج، متناسية الألم في ساقيها ثم مسحت يديها على بنطلونها وهي تقول لنفسها، ابقي هادئة، ولم تفلح. نزلت الدرج مسرعة وكادت تسقط لان اصابع قدمها علقت بالسجادة وارتجفت قائلة لنفسها بصوت عالٍ، حاذري!

ولدى دخولها المطبخ رأت جسماً طويلاً يظلل فتحة الباب فشهقت وهتفت:

- يا الهي! اندريه!

ثم سقطت كومة واحدة عند اسفل الدرج.

هب اليها في لحظة، ورفعها بين يديه حتى تأكد انها تستطيع الوقوف لوحدها، وسأل بصوت أجش:

- ما الأمر؟ ما الذي حدث؟

انتبهت هاريت لشحوب وجهه وقالت بصعوبة بالغة:

- انها سوزان! لقد وقع لها حادث بالمنجل... انا... انا ذهبت الى القصر...

- اعلم انك فعلت. لذلك انا هنا.

- اوه!

ازاحت شعرها الى الوراء وتابعت:

- اذن جدتك...

- قالت فقط انك اخبرتها قصة غير مفهومة عن حاجتك لمساعدة بول.

نظرت هاريت اليه وردت متلعثمة:

- بول... بول قال لي انك غائب.

هز رأسه بحيرة وقال بخواء:

- بول الذي قال هذا؟ ستخبرينني فيما بعد. اين هي؟

- هناك.

اقتادته هاريت الى الصالون فركع قرب الفتاة الغائبة عن الوعي. وضع ابهاميه على جفنيها وفتح تقرني عينيها ثم انتصب ونظر الى الدماء على المقعد.

- لقد نزفت بشدة اليس كذلك؟

- اجل.

تقدم من المجلى لغسل يديه قائلاً:

- سآخذها الى شيرون في بلسوريو.

- شيرون؟ هل هو طبيب؟

- لديه عيادة صغيرة.

جفف يديه وسألها:

- هل لديك شيء نظيف نربط به ساقها؟ وبطانية؟ لا نريدها ان تصاب ببرد.

- اجل، اجل.

ونظرت حولها بلا تركيز:

- الا يوجد اطباء في روشلاك؟

- اجل، لكنهم لن يتمكنوا من عملية نقل الدم.

ثم عاد الى الصالون وذكرها بالرباط المطلوب.

اندفعت هاريت الى فوق لتحضر غطاء مخدة نظيفاً وحراماً. ولما نزلت ثانية وجدته يحمل سوزان برفق، وارشدها قائلاً:

- ضعي البطانية على الاريكة.

مدد الفتاة على الحرام واستدار ليتناول غطاء الوسادة وسألها:

- هل هذا الرباط؟

هذا كل ما لدي.

فمزق القماش قائلاً:

- اذهبي وافتحي الباب.

وربط ساق سوزان التي بدأت تتحرك.

ـ الباب؟ انه مفتوح.

احست هاريت انها تتصرف بغباء، وافهمها اندريه بصوت هادىء:

ـ باب سيارتي.

ـ لم اعرف انك اتيت بالسيارة!

اجابها اندريه:

ـ لا اظن انك كنت في حالة تسمح لك بالاستماع الى اي شيء.

فالقت هاريت نظرة طويلة وحزينة على الفتاة ثم غادرت الغرفة.

كانت الشمس في الخارج تعمي البصر بعد برودة الجو داخل البيت. وتذكرت هاريت كم هي عطشة. قرب سيارة الفيات كانت تقف سيارة ستروين مغطاة بالغبار، فتقدمت منها بسرعة وفتحت الباب الخلفي، ونظرت الى الوراء عندما سمعت اندريه يناديها:

ـ هل ستأتين معنا؟

وعندما اومأت، تابع قائلاً:

ـ اذن من الأفضل ان تقفلي باب البيت.

ـ اجل.

اسرعت الى البيت مارّة باندريه وهو يحمل الفتاة.

كانت عينا سوزان مفتوحتين تنظران اليها بقلق فهمست لها بحنان:

ـ لا بأس عليك يا حبيبتي، ستصبحين بأحسن حال.

سألت سوزان وعيناها تدمعان:

ـ ماذا حصل؟ الى اين نذهب؟

فأجابها اندريه بحزم:

ـ لزيارة الطبيب.

ثم نظر الى هاريت نظرة ثاقبة، فهزت رأسها واسرعت تقفل الباب.

لما عادت كان اندريه قد اجلس سوزان على المقعد الخلفي بطريقة مريحة. همّت بالجلوس قرب الفتاة لكن اندريه قال:

ـ من الأفضل ان تجلسي على المقعد الامامي.

نفذت طلبه فوراً بعدما رمقت سوزان بنظرة عطوفة.

أقفل اندريه الباب وقاد السيارة الى الوراء بمهارة على الممر ولم تحس

سوزان بالاهتزاز بسبب وسائد السيارة المريحة، وسرعان ما سلكوا الطريق المؤدي الى بلسوربو. كتب على اللافتة ان البلدة تبعد سبعة كيلومترات، واحست هاريت بارتياح. كانت المسافة أقل من خمسة اميال، وقطعها لا يستغرق الكثير من الوقت خصوصاً ان اندريه يعرف الى أين يذهب.

القت نظرة جانبية على الرجل الذي يقود السيارة بثقة وبيدين نحيلتين. يجب ان تشكره، ولم يكن من السهل ان تكون مدينة له. لقد عامل سوزان بغاية الرفق، واحست بالحسرة للطريقة التي عاملته بها في لقائهما الأخير. كانت تبرّر نفسها وهي تنظر من خلال النافذة. ولم لا؟ فهو الذي تسبّب في حقدها عليه، والله يعلم ان لديها كل الحق لتكرهه.

تحركت سوزان، فانتهزت هاريت هذه الفرصة لقطع حبل الصمت وقالت:

ـ كيف تشعرين؟

ارتجفت شفتا سوزان وهي تجيب:

ـ اشعر برعشة وحرارة.

ارادت ان تزيح الحرام لكن اندريه نظر اليها عبر كتفه وقال:

ـ دعيه عليها.

فامتثلت لرغبته.

ـ كيف حصل الحادث؟

كان سؤال اندريه متوقعاً، لكن هاريت وجدت الاجابة عليه صعبة:

ـ سوزان... كنت انا في روشلاك، ويبدو ان سوزان قررت ان تكمل قصّ العشب.

ـ بالمنجل؟

ـ اجل.

عضت هاريت على شفتها السفلى وتابعت كمن يهذي:

ـ بول استعمل المنجل من قبل... كان يجب ان امنعه من ذلك، لأنه اداة خطرة.

راح اندريه ينظر اليها كأنه يوبخها ويستصغرها فأحست انها بلهاء وغير قديرة. لو حدث لبول حادث كهذا او اسوأ منه فكيف يكون احساسها؟ نعرها رد الفعل المتأخر بالغثيان. واحست ان ساعات قد مضت منذ

كانت جالسة مع بول في مقهى روشلاك تحتسي القهوة مما زاد احساس الفراغ بداخلها.

- كيف تشعرين؟

سألها اندريه فجأة وقد لاحظ شحوبها فتحركت في مقعدها كي لا يرى وجهها وأجابته باقتضاب:

- على ما يرام.

لم يبد أية ملاحظة اخرى، واخذ يحادث سوزان ويؤكد لها ان الدكتور شيرون كان لطيفاً وسيعالجها عما قريب وتتحسن حالتها.

كانت بلسوربو اكبر بقليل من روشلاك وتقع في الناحية المنخفضة من الوادي. جسر مقوّس فوق خندق مائي اوصلهم الى ساحة البلدة الصاخبة ونافورة تسكب الماء في حوض حيث يلعب الاولاد. ابنية من الاحجار الطبيعية مزينة بستائر ملونة تظلل الزبائن المتوافدين للشراء في فرصة الظهر، وشرفات مزدانة بزهور ابرة الراعي واللوبيليا الحمراء القانية.

قطع اندريه الساحة، ودخل زقاقاً مرصوفاً بالحجارة. ادراج حديدية قادت الى منازل فوق مراتب كانت في القديم اسطبلات للخيول. خرجت هارييت من السيارة وثيابها مشوشة فرأت اللافتة التي كتب عليها عيادة الدكتور شيرون وتململت بينما اندريه يحمل الفتاة ليخرجها من السيارة. كانت ساقاها مخدرتين ولكنها اجبرت نفسها على اللحاق بهما لأنها رأت اندريه يصعد الدرج باتجاه الباب المطلي باللون الابيض. من الغباء ان تنهار الآن بعد ان انتهت الازمة، بيد انها مسرورة لوجود الدرابزين.

استقبلتهم ممرضة بدا انها تعرف اندريه جيداً مما ساعده في تعجيل الأمور. عثر على الدكتور شيرون بدقائق، وجرّت سوزان على نقالة الى غرفة العمليات الصغيرة. وفيما هي جالسة مع اندريه في غرفة الانتظار، سألها:

- هل انت قادرة على اعطائهم بعض التفاصيل عن سوزان؟

تنهدت بصعوبة وقالت:

- اظن ذلك. لا حاجة لأن تنتظر معي، فقد يستغرق هذا بعض الوقت.

فقطب اندريه وقال:

- هل تعتقدين انها ستترك هذا المكان اليوم؟

وعندما رأى الوجوم على وجهها، اكمل:

- من الأكيد انهم سيبقونها هنا على الأقل لمدة أربع وعشرين ساعة للمراقبة.

- انني... انني لم اتوقع هذا...

وضعت يدها على رأسها كأنها تحس بدوار وسألته:

- هل تعتقد انها ستكون على ما يرام؟

- فقدت كمّية كبيرة من الدم ولكن هذا لن يعيق شفاءها في عصرنا هذا. الخطر الوحيد هو الالتهاب وأنا واثق من ان شيرون سيعطيها كل الحقن اللازمة.

فركت هارييت يديها ثم احنت رأسها قائلة:

- اذن، لست بحاجة الى تضييع وقتك بعد الآن.

صمت اندريه فترة قصيرة ثم قال بهدوء:

- هل قلت انني أضيع وقتي؟

- كلا، ولكن... من الواضح انك تضيعه.

ضمت راحتيها بقوة وهي تتهرب من النظر الى عينيه الثاقبتين وتابعت:

- لا اعرف كيف اشكرك على مساعدتك لنا.

فذكرها اندريه قائلاً:

- لكنك لم تطلبي مني العون، أليس كذلك؟ ربما تستطيعين الآن ان تقولي لي كيف تورط بول بكل هذا. هل ازعجك ثانية؟

اجابت بارتباك:

- كلا... نحن التقينا هذا الصباح في روشلاك... تناولت القهوة معه...

- بينما كانت سوزان تقطع العشب؟

احتجت هارييت وهي تتنهد:

- لم اعرف انها كانت تقلّم الحشيش. وبصراحة لم استطع ان اكون وقحة وارفض دعوة بول.

فقال بلهجة جافة:

- مما يسترعي الانتباه أنك لم تستعملي الاعتبار نفسه معي، لم تكن عندك

محاذير كهذه بالنسبة الي.

ازعجها اندريه والغرفة التي يجلسان فيها صغيرة فأدارت نظرها عنه. حتى وهو يرتدي بنطلون جينز ملطخاً بالوحل، وقميصاً من القطن الخشن، كانت جاذبيته كاسحة... وكلما امضت وقتاً أطول معه كلما صعب عليها ان تتناسى آخر مرة التقيا فيها... غمغمت لتقطع الصمت الثقيل:

- اتساءل ان كان سيطول بقاؤهم في الداخل؟

فابتعد ووقف ينظر من خلال النافذة، ثم سألها فجأة:

- من اعطاك فكرة شراء بيت في الدوردون؟

فوضعت يديها في جيبي بنطلونها كي لا يرى ارتجافهما وقالت:

- كنت أحب دائماً هذه الناحية من فرنسا. وقال لي تشارلز ان توظيف المال في البيوت شيء مربح.

قال:

- تشارلز.

وهزّ رأسه.

- اجل تشارلز هو كني، رب عملي... انا متأكدة انك تذكره.

لم تستطع ان تحذف السخرية، فاستدار ونظر اليها بغضب وقال باستفزاز:

- اجل أتذكر تشارلز وأريكته المصنوعة من وبر الحصان التي كانت في الغرفة الخلفية.

احمرّت وجنتاها واجابت:

- من الأكيد ان تذكر ذلك!

فاكفهر وجه اندريه وقال بوجوم:

- ولم لا؟ لماذا لا اتذكر؟ كنا سعيدين هناك.

ردّت بحدة وهي تمشي في ارجاء الغرفة بخطى قلقة:

- انت كنت سعيداً.

ثم استطردت بخوف:

- اوه، ليتهم يخبرونني ماذا يدور في الداخل!

كان اندريه ينظر اليها، فاستجمعت قواها ورفعت رأسها لتواجهه. لماذا

يريد ان يكون كل شيء حسب رغبته؟

سألها بهدوء:

- هل تقصدين القول اننا لم نسعد معاً ابداً؟

فقفز قلبها وقالت باجهاد:

- أفضل ان لا اتكلم عن ذلك... هل... الدكتور شيرون صديق لك؟

أجابها اندريه متجهماً:

- بالله عليك يا هارييت، تكلمي معي كما تتكلمين مع ابني! قولي لي، ماذا كنت تنتظرين ان أفعل؟

- انت تسألني هذا!

شهقت واردفت وهي تشيح عنه:

- حسناً يا سيدي... هل علي ان اناديك كونت؟ قل لي، كيف زوجتك؟

فاستشاط غضباً، ثم قال برأس منحن:

- ألم يقل لك بول ان والدته توفيت؟

- ماتت!

لم تستطع ايقاف نفسها وأكملت متلعثمة:

- انا... كلا! طبعاً لم يقل لي.

ثم غطت عنقها بكفيها وسألته:

- لماذا لم تخبرني؟

- هل كنت استمعت الي؟ توفيت منذ ستة أشهر.

- ستة أشهر؟

لم تستطع هارييت منع نفسها من اعادة كل ما يقوله... وتابعت:

- انني... انني آسفة.

رفع حاجبيه مستفهماً. وقال:

- لا ارى حاجة لأسفك. انت لم تتعرفي الى زوجتي.

حبست هارييت انفاسها واجابت:

- اشعر الاحساس نفسه لأي كان. لأن الموت دائماً مؤلم.

اجابها:

- الموت يمكن ان يكون تحرّراً. في كل حال، أقبل تعازيك.
نظرت اليه هاربيت بعدم ارتياح وقالت:
- هل كانت... أكانت تعاني من مرض؟
تقلصت شفتاه وردّ باختصار:
- نعم. كانت مريضة.
- هل مرضت طويلاً؟
تنهد قائلاً:
- نعم، كان مرضاً مزمناً.
- منذ متى؟
فجأة كان لا بد لها ان تعلم، فسألها:
- وهل الأمر يهمك؟
- احب ان اعرف.
نظر اليها باتزان ثم قال:
- منذ عشر او احدى عشرة سنة.
- احدى عشرة سنة!
ارتاعت هاربيت. هذا يعني... في إثناء لقاءاتهما تلك... كان مجرى هذا التفكير فظيعاً للغاية، فغطت وجنتيها بكفيها وابتعدت عنه لتفصل بينهما الغرفة الصغيرة... فقال بوجوم:
- مسمار آخر يدق في نعشي، اليس كذلك؟ اجل، كانت عليلة عندما كنت القاك. هذا ما تريدين سماعه، اليس كذلك؟
- لا اريد سماعه.
فأجابها:
- لكن هذا يروق لك وربما يعطي تبريراً للطريقة التي تعاملينني بها؟
شدّت هاربيت شفتيها المرتجفتين وقالت:
- هذا لا يسرّني ابداً.
اعوجت شفتاه بعصبية واجابها:
- كلاّ، لديّ انطباع واضح بانك تفتشين... كيف تعبّرين عن هذا... انك تؤججين نار كراهيتك! لا تودين ان تشعري انك مدينة لي، والآن انت سعيدة.

- هذا ليس صحيحاً!
كان يبتعد عنها ويفتح باب غرفة الاستقبال ثم تركها وحيدة وهي تشعر باحساس مرهق وبأنه على حق. من الممكن ان تحتقره، لكنه الرجل الوحيد الذي يستطيع تدمير أي دفاع ترفعه ضده.
تقدمت نحو الباب لتسمعه يخاطب الممرضة. كان يسألها عما يدور في الداخل، فأكدت الممرضة له وهي تبتسم ان الدكتور شيرون سيقابلها بعد قليل. كان واضحاً ان الممرضة قد أعجبت به، وعندما ابتسم لها احسّت هاربيت بانقباض مؤلم في عضلات معدتها. ارتكزت على الحائط قرب الباب وهي تحاول استعادة رباطة جأشها انما بدون جدوى. أحسّت بغثيان، يا للعار، تقيأت ولم تستطع منع نفسها من ذلك. احست بقدوم اندريه والممرضة، وبدا على وجه كل منهما الاهتمام. وأطبق اندريه اصابعه النحيلة على ذراعها وجرّها برفق خارج الغرفة عبر بهو الانتظار والى الباب الخارجي. السلم الحديدي كان في الظل ونسيم خفيف يمرّ في الزقاق ويلطّف وجنتيها.
أحسّت هاربيت بالمهانة فابتعدت عن اندريه واتكأت على الدرابزين وهي تبتلع الهواء المنعش وبدأ الغثيان يتلاشى.
ارتعدت عندما تذكرت وتأوهت قائلة مخاطبة نفسها:
- ماذا ستقول عني الممرضة؟
لكن اندريه سمعها، فقال وهو يتكىء قربها على الدرابزين:
- من تقصدين؟ الآنسة دوبوا؟ انها ممرضة ومعتادة على المرض.
نظرت اليه هاربيت قائلة:
- انا لست المريضة. كان يجب ان اسأل عن مكان الحمام.
فرك اندريه انفه متأملاً وقال:
- من الواضح انه لم يكن لديك متسع من الوقت.
نظرت اليه بسرعة، معتقدة انه يهزأ بها، لكنّه بدا جدّياً وأضاف:
- هل تشعرين بتحسّن الآن؟
احست هاربيت انها تفقد توازنها واعترفت بصدق:
- لا اعرف، لا بد ان الصدمة احدثت ردّ الفعل هذا.
فاستوضحها باهتمام:

- هل تناولت شيئاً من الطعام اليوم؟
- بعض الخبز المحمص.
- أهذا كل شيء؟
- كان نهاراً محموماً اليس كذلك؟
انتصب محيياً:
- اجل، في اكثر من مجال على ما اعتقد.
ثم فتح لها الباب وأردف:
- بعد استشارة الدكتور سنذهب لتناول الغداء، اليس كذلك؟
نظرت اليه وسألته مرتبكة:
- لماذا... لماذا تهتم اذا كنت قد تناولت وجبة الغداء؟
انقبض فمه وقال:
- سؤال جيد.
لكنه لم يعط له جواباً.
كانت الممرضة تنتظرهما، واقبلت تقول وهي تبتسم لهارييت:
- الطبيب جاهز لمقابلتكما، هل استرحت؟
اجابت هارييت:
- شكراً، لقد تحسنت كثيراً، وانا آسفة على ما حصل...
فأكدت لها الفتاة قائلة:
- هذا ليس مهماً. اتبعيني من فضلك.
جلس اندريه في حجرة الانتظار واضطرت هارييت لمرافقة الممرضة عبر الباب المؤدي الى الرواق. مكتب الطبيب كان ثاني باب في الممر. تركتها الممرضة لتذهب وتحادث اندريه على الأرجح.
كان الدكتور شيرون أصغر سناً مما تصورته، متوسط القامة وله سالفان، وشعر يميل الى اللون البني. لم يكن رجلاً جذاباً لكن مريوله الأبيض اضفى عليه نوعاً من الجاذبية والسلطة. ابتسم محيياً باللغة الانكليزية:
- آه، آنسة انغرام. تفضلي بالجلوس.
اخذت هارييت الكرسي المواجه لمكتبه. كانت متأثرة بمضاعفات الغثيان والقلق على حالة سوزان. أتمّ الدكتور شيرون كتابة شيء ما وأطبق

الملف ثم جلس قبالتها وقال:
- والآن، هل انت خالة الصغيرة؟
- اجل، كيف حالها؟ هل ستكون على ما يرام؟ لقد فقدت كمية كبيرة من الدم.
ابتسم الطبيب مطمئناً:
- لا داع للقلق يا آنسة. الفتاة نزفت بغزارة لكن هذا قد عولج، والآن بقيت امكانية الالتهاب.
شدت قبضتها على ذراعي الكرسي، وقالت:
- هل الالتهاب محتمل؟
عبس وهو ينظر الى يديه الناعمتين باظافرهما المقلّمة والمختلفتين عن يدي اندريه القاسيتين. حاولت ان تركز على كلام الطبيب:
- يجب ابقاء ابنة أختك هنا، على الأقل لهذه الليلة، فساقها تحتاج الى راحة كما تعلمين، ولدينا كل التسهيلات المطلوبة لعلاج الحالات الطارئة.
اومأت هارييت قائلة:
- افهم.
نظر اليها بلطف وتابع:
- لا أتوقع أي طارىء يا آنسة انغرام. ان ابنة اختك شابة وبصحة جيدة. كان الجرح نظيفاً لكن الأداة تقلقني. من الممكن ان تكون أدوات الحديقة خطرة.
اومأت هارييت قائلة:
- هل يمكنني مشاهدتها؟
- بالطبع، لكن ربما بامكانك أولاً ان تعطيني بعض الايضاحات عنها... اسمها، تاريخ ولادتها، عنوان سكنها، الى آخره. سيستغرق هذا دقيقة، ثم تستطيعين لقاءها لوقت قصير. اسمها سوزان، أليس كذلك؟ لقد اعطيناها مسكّناً واقترح ان تبقي معها لدقائق معدودة.
كانت سوزان نعسانة عندما دخلت هارييت لمشاهدتها، لكنها قبضت على يدي خالتها وصرخت:
- لا تتركيني هنا.
فشدّت على اصابعها مطمئنة وقالت:

- عليّ ان افعل ذلك. ستبقين هنا الليلة وناخذك غداً الى البيت.
- ولكنني لا اتكلم الفرنسية.
فعزّتها سوزان قائلة:
- لا تقلقي يا حبيبتي، انهم يتكلمون الانكليزية وسيهتمون بك.
- أين السيد لاروش؟
تقلصت هارييت واجابت:
- لماذا تسألين؟
- اود مشاهدته لأشكره لأنه جاء بي الى هنا.
- سوف تفعلين غداً. والآن عليك ان تستريحي لتستعيدي قواك وتذهبي الى البيت.
دمعت عينا سوزان وقالت:
- هل يمكنك ان تعودي لاحقاً؟
تردّدت هارييت واجابت:
- ربما استطيع. سأستوضح الأمر وانا خارجة. واذا استطعت، اعدك بان افعل.
شهقت سوزان قائلة:
- لقد خيّطوا ساقي... وقالت الممرضة ان الجرح احتاج الى عشرين قطبة.
هزّت هارييت رأسها:
- عشرون قطبة؟ هذا كثير.
- أعلم ذلك.
وزها وجهها عندما أيقنت انه اصبح لديها قصة ترويها لصديقاتها في المدرسة عندما تعود لانكلترا، ثم تهدل فمها وعلقت بحزن:
- لن استطيع لعب التنس هذه السنة.
فشجّعتها هارييت بقولها:
- ستفعلين في العام المقبل.
عندئذ دخلت احدى الممرضات فقالت خالتها:
- يجب ان اذهب الآن.
قالت الممرضة بلطف:

- من فضلك يا آنسة.
فانحنت هارييت وقبلت خدّ سوزان هامسة بحنان:
- سأراك فيما بعد.
وابتسمت وهي تغادر الغرفة.
لكنها في الخارج فقدت الثقة ومشت باتجاه بهو الاستقبال وهي تحسّ نفسها غريبة على أرض غريبة. من المفروض ان تكتب الى والدتها لتخبرها بما حدث، مع انها لا تتشوق للقيام بهذا العمل. كانت السيدة انغرام صعبة الاقناع بأصغر الاشياء، وجرح احتاج الى عشرين قطبة لم يكن امراً تافهاً.
وجدت الممرضة خلف مكتبها حين ظهرت في الباب انما لم تجد اثراً لاندريه. امتعضت، وانهارت معنوياتها، لكنها وضعت احاسيسها جانباً واقتربت من المكتب وهي تسأل:
- هل من الممكن ان اعود لاحقاً؟ ان ابنة اختي تحسّ بالانقباض وليتني ازورها ثانية، في الساعة السادسة... مثلاً؟
فكرت الآنسة دوبوا قليلاً ثم قالت:
- لا احد يمانع في ذلك انما هل لك ان تتصلي بنا قبل مجيئك؟
شكرتها هارييت وذهبت. لم تحس انها قادرة على التفسير للآنسة دوبوا بأنها بلا هاتف. في كل حال قرّرت ان تعود فيما بعد وليس لديها شيء آخر تفعله. لاحظت انها لم تحضر حقيبتها وكونها لا تحمل نقوداً لا تستطيع تأمين انتقالها. تردّدت عند الباب وهي تميل لتسأل الممرضة ان تقرضها بعض المال. وفجأة فتح الباب وظهر اندريه. ارتاحت لرؤيته ونظرت اليه فاقدة الصوت، ولاحظت انقباض فمه قبل ان يسأل:
- هل هناك مشكلة؟ هل انت جاهزة للذهاب؟
- ماذا؟
لملمت نفسها بصعوبة، وتابعت:
- اجل، اجل.
سألها:
- هل سوزان على ما يرام؟
فأومأت واجابت:

- كما قلت سيبقونها هنا هذه الليلة.
- حسناً. والآن، هل نجد مكاناً لتناول الطعام؟

مرّت هاريبت من تحت ذراعه وهو يفتح لها الباب، ومشت مرتخية وهي تنزل السلم الحديدي. تبعها اندريه ثم تجاوزها ليفتح لها باب السيارة، فتوقفت وهي تحس بتوتره وقالت:

- اعتقدت انك ذهبت.
- أذهب؟ والى أين اذهب؟

بدا وجهه خالياً من اي تعبير فقالت:

- الى البيت. لتعود الى القصر.

دفعها اندريه بخشونة الى داخل السيارة ثم أغلق الباب ولفّ من حول السيارة ليجلس قربها. لم يتكلم وهو يضع المفتاح ويدير المحرك. وضعت هاريبت يديها بين ركبتيها وتمنّت لو لم تحاول ان تفسّر الموقف. غادرا الزقاق ودارا حول ساحة السوق وسلكا الجسر الى خارج المدينة. خاب أملها واندهشت لأنها كانت تنتظر ان يتناولا الطعام في احد المقاهي تحت الشمس. ربّما اندريه سحب دعوته لأنها تصرفت بغباء! احسّت بالبرد يهاجم معدتها.

كانت تحاول استجماع شجاعتها لتسأله الى اين سيذهبان حين انحرف عن الطريق الى درب ضيق مظلل بالاشجار كأنه يقود الى طريق مسدود. انتهى الطريق فجأة الى بوابة حديدية، حيث المراعي تنحدر الى النهر والضفاف ملأى بالازهار. كان المكان رائعاً، وصوت جرس الساعة يقرع عن بعد مما زاد من رونقه. نظر اندريه اليها ولاحظ نظراتها المستغربة فقال:

- ظننت انك تفضلين هذا المكان على أي مقهى تحت انظار عشرات الناس. انت غريبة هنا والناس فضوليون.
- هل سنتناول طعامنا في الهواء الطلق؟

مدّ اندريه يده الى مؤخرة السيارة واخرج رغيفاً فرنسياً طويلاً، وبعض الجبنة ودرّاقاً مقشراً، وقال بهدوء:

- احضرت هذه الاشياء وانت تتكلمين مع الطبيب.
- لم اعرف، لم اتصور...

تلعثمت لكنه هزّ كتفيه بطريقته المعهودة وفتح باب السيارة. بعد تردّد

قصير لحقت به واسرعت لتفتح البوابة.

أغصان شجرة الكستناء المتفرقة كانت تؤمّن واحة ظلّ. وبعد استئذان هاريبت فرش اندريه البطانية التي حمل بها سوزان على الحشيش. ثم اشتمّت اشهى رائحة خبز عندما قطعه. جلست على طرف البساط، وهي تتمتع بالمنظر الذي يبدو مألوفاً ولكنه غير مألوف. محاسن هذا المكان تشبه المناظر التي تعرفها في انكلترا. كانت الألوان نفسها انما تختلف بعض الشيء، فالخضرة هنا أغمق وأقوى، وخط التلال الحمراء أقسى... الشفق يخيم بكسل فوق المراعي ويبعث رائحة عشب وثوم برّي... وسرب من الأوز البري أزعجه شيء غريب فاندفع الى السماء واجنحته القاتمة ترفرف في عرض الأفق.

اسندت هاريبت ذقنها على ركبتها وتساءلت اي خطر زجّت نفسها فيه.

٨ - جدار الماضي

اتكأ اندريه على جذع الشجرة وفتح زجاجة عصير الفاكهة قائلاً:
- اعذريني، ليس عندي اقداح.
ثم نظف عنق الزجاجة براحة يده وقال:
- هل تمانعين؟
هزت هاريت رأسها وهي لا تجرؤ على الكلام كيلا تفسد جمال اللحظة. قدم لها الزجاجة لتشرب اولاً وكانت لا تزال باردة ومنعشة. بقي مذاق العصير على لسانها لفترة بعدما اعادتها اليه، ثم قالت:
- طعم الخبز كان لذيذاً كرائحته ونكهة الجبنة قوية ومرضية.
سال عصير ثمرة الدراق التي في يدها على اصابعها فأخذت تلعقه بلسانها كما يفعل الأطفال. شعرت بدهشة لاحساسها القوي بالجوع آخذة في الاعتبار ما حدث صبيحة هذا اليوم. وادركت ان الساعة جاوزت الثالثة، فسألته:
- الا تتساءل جدتك أين انت؟
فأنزل الزجاجة من شفتيه واجاب محدقاً اليها باهتمام مركز:
- لويز؟ ربما، لا شك انها تعتقد بأني عدت الى عملي.
مسحت هاريت بيدها آخر نقطة من العصير عن فمها وسألت:
- هل انت تعمل؟ ماذا تفعل؟
اسند رأسه على جذع الشجرة واجاب:
- انا مزارع وماذا يفعل المزارعون؟
اتسعت حدقتاها وقالت مترددة:

- لكنك الكونت دو روشفور.
تقلصت شفتاه وصحح لها بشدة:
- انا اندريه لاروش وما نفع الألقاب لي؟
نظرت هاريت الى اصابع قدميها. عرفت انه ليس الوحيد في هذا الوضع. كانت المقاييس تتبدل في جميع انحاء اوروبا، وفي انكلترا مثلاً معظم الأملاك بيعت او قدمت هبة للدولة ولم يسمح بتوريث الشراء. لكن الأمر يبدو مختلفاً بالنسبة الى اندريه. سألها:
- ما الأمر؟ انها طريقة شريفة لكسب العيش أليس كذلك؟
وافقت بسرعة قائلة:
- اجل.
- لكن لماذا يظهر عليك الانزعاج؟
هزت هاريت كتفيها وبدت عاجزة عن التفكير. كيف تفسر له ان هذه الصورة الجديدة لا تطابق الصورة التي عرفتها عنه سابقاً؟ رجل يتحاشى ذكرى مهنته لأنه غير محترف. ولاحظت ان يديه الناعمتين منذ ثماني سنوات قد خشنتا الآن. . . قالت:
- آسفة لأنك لا تستطيع صيانة القصر كما كنت تفعل.
- ربما تظنين ان فلاحاً صغيراً لا يصلح لأن يشاركك غذاءه.
نظرت اليه متألمة وهزت رأسها قائلة:
- هذا ليس صحيحاً. في الحقيقة لا يتناسب ذلك مع الذي عرفته عنك.
اجابها بحدة:
- ماذا تعتقدين انك تعرفين عني؟
واخذ يشتم بغضب واكمل:
- تناسي الموضوع. انها أمسية حارة لا تصلح للنقاش.
اطبق عينيه كي لا يراها، فوجدت نفسها تقبض على معصميها بقوة. خلع معطفه، وفتح ازرار قميصه. كانت ساقاه ممدودتين امامه بكسل، لكن خطوط عضلاته تبرز تحت قماش بنطلونه الخشن. تساءلت هاريت عن شكل زوجته، وان كان اندريه قد احبها كثيراً. لقد رزقا بولد واحد، وهذا يعني ربما حلاً صعباً واختلاطات لاحقة. او من المحتمل ان زوجته لم

ترغب في انجاب اطفال آخرين. ارتعدت هاريت ووضعت يديها على بطنها. هل كان اختلف الأمر لو عرف الحقيقة؟

فتح عينيه فأشاحت طرفها عنه لكن ليس قبل تلاقي نظراتها، وملاحظتها الاهتمام الذي ظهر في نظرته... ولتحول انتباهه عنها، اخذت تجمع بقايا الغداء في كيس من الورق. فرأته يمسك بزجاجة العصير التي لم تفرغ بعد وسألها:

- هل انت عطشانة؟

هزت رأسها.

- كلا. كنت اتساءل عن مصير الزجاجة. اعتذر ان كنت سببت لك ازعاجاً.

- انت دائماً توترينني.

اخذ نبضها يتنفض. ابتعد عن الشجرة، ثم استلقى على البطانية وتمدد بقربها. للحظة خيل اليها انه سيلمسها فتوترت اعصابها بترقب. لكنه لم يفعل بل مد ساقيه ورفع زجاجة العصير الى فمه.

ارادت ان تبتعد عنه. كانت ذراعه على مقربة منها الا انها لم تتحرك كي لا يصبح الأمر جلياً. كذلك لا يجب ان تتوتر عندما تكون على مقربة منه... سألها:

- خبريني يا هاريت، لماذا عزفت عن الزواج لغاية الآن؟

انقبضت واجابت بسرعة:

- لأنه لم يطلبني احد.

- لا اصدق هذا. ماذا جرى للشبان المتلهفين الذين كنت تعرفينهم في بلدك؟

- لقد انتقلت الى لندن حيث اسكن الآن.

- الا يوجد رجال في لندن؟

ورمقها بنظرة قاتمة واضاف:

- لا اصدق ان ليس لديك معجبون؟

- اتقصد بعدك انت؟

لفظت العبارة وهي تكاد تختنق، واردفت بحنق:

- اتظن انه كانت لي علاقات كالعلاقة التي كانت بيننا؟

زمجر اندريه بعنف واستدار قائلاً:

- كلا، لم اعتقد شيئاً من هذا القبيل. لكنني لست غبياً، لقد دربت نفسي على الا اكون الرجل الوحيد الذي له تأثير عليك.

- اذن تعتقد اني اقمت علاقات... ربما، لكنك لن تعرف الحقيقة ابداً، اليس كذلك؟

قالت هذه العبارة بمرارة فصرخ فيها:

- هاريت!

الطريقة التي لفظ بها اسمها اثارت مشاعرها، وعندما ناداها ثانية بعاطفة، ارتعد جسمها ليتجاوب مع رغبة صوته الملحة. لم تنصع لتأثيره بل ابقت عينيها مفتوحتين وهي تحدق في زرقة السماء، وتذكرت ما سيحصل لو اذعنت... احس بنفورها مع انها لم تستطع منع التفاعلات التي اثارها فيها. ثم زفر بصوت منخفض وابتعد عنها يستلقي على ظهره بجانبها ويداه مشدودتان فوق رأسه كما لو انه يمنعه من الانفجار، تنفس بتقطع وقال بخشونة:

- واخيراً، انتهى كل شيء.

نهض بوحشية وسحب سترته بيدين مرتجفتين واضاف:

- تعالي، سنذهب الآن.

لم تحس هاريت انها كانت ممسكة انفاسها حتى بدأت تتحرك، ثم شعرت بصعوبة عند تنشقها الأوكسجين لأنها أحست بألم شديد في رئتيها وقلبها من قوة التشنج. ماذا حدث لها؟ سألت نفسها بذعر وهي تجلس لترتب ثيابها. لقد برهنت له بأنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة السريعة التأثر التي عهدها وانه لن يخدعها ثانية. اذن لماذا لم تحس بالانتصار؟

عندما نهضت، اخذ اندريه البطانية والكيس المحتوي على الفضلات. وقالت في نفسها: يا للخسارة!

لحقت به الى البوابة لكن هذه الكلمة دلت على علاقتهما وكان عليها ان تصارع الدموع قبل ان تنهمر.

استغرقا بعض الوقت للوصول الى البيت، وعندما سألها اندريه الذي بقي صامتاً طول الطريق، ان كانت ستعود الى بلسوربو في الصباح، فأجابته:

- لقد وعدت سوزان ان اعودها هذا المساء فهي لم تكن مسرورة عندما تركتها هناك. قلت لها انني سأحاول رؤيتها ثانية اليوم.

- فهمت. هل تظنين انه من الصواب ان تفعلي ذلك؟

- ولم لا؟

كانت ستناقشه لكنه فتح يديه ليعبر عن موافقته وقال:

- كما تشائين.

ولم يزد شيئاً. همت بالنزول من السيارة وقالت:

- اشكرك ثانية.

لكنه اكتفى بهز رأسه وغادر المكان فوراً. تجولت هارييت في الغرف الخالية، وهي تضغط على نفسها كي لا تشفق على ذاتها. فأحضرت دلواً من الماء وقطعاً من القماش لتغسل الدم الذي لطخ المقعد. وبينما كانت تعمل بيديها، كان عقلها حراً ليهيم كيفما شاء، ومن المحتم ان تفكر باندريه وبما قاله عن زوجته.

تساءلت عن نوع المرض الذي طال امده لسنين عديدة. هنالك عدة احتمالات، وايقنت كم هذه الامراض مدمرة للزواج. لكن هذا العذر لا يبرر تصرف اندريه، واخذت تفرك اكثر من اللازم حتى آلمتها ذراعها. كون زوجته مريضة ليس عذراً قوياً ليبحث عن المتعة في مكان آخر، او ربما تغاضت زوجته عن تصرفه، انما لا يعقل هذا.

استراحت على كعبيها، ولو استطاع احد ان يقرأ افكارها لحسبها تحاول ان تجد له مبرراً او تجد مبرراً لنفسها. او ماذا؟ ماذا فعلت لتشعر بكل هذا الانزعاج؟ ارغمت نفسها على تناول عجة بيض قبل ان تعود الى المستشفى. هذه المرة استعملت سيارتها واخذت معها حقيبتها، وارتدت فستاناً حريرياً بلون المشمش ذا ثنايا تبرز رشاقة ساقيها. . . ارادت افهام الآنسة دوبوا انها ليست تلك الفتاة المشوشة التي قابلتها صباحاً. . . حين وصلت كانت نوبة عمل الآنسة دوبوا قد انتهت، ووجدت سيدة مسنة تجلس الى مكتب الاستقبال. طلبت منها السماح بمقابلة سوزان فنظرت اليها بريبة ثم سألتها بالفرنسية ان كان الدكتور شيرون قد سمح لها بزيارة المريضة. وعندما اعترفت هارييت بانها لم تستأذن الطبيب هزت السيدة رأسها معتذرة:

- آسفة، الدكتور استدعي خارج المستشفى ولا استطيع السماح لك بالزيارة.

فتنهدت قائلة:

- لكن ابنة اختي جرحت ساقها، وستبقى هنا الليلة فقط.

- آسفة.

اجابتها المسؤولة مجدداً.

عندها فتح باب خلفي ونسمة من الهواء البارد اعلنت قدوم شخص ما، فاستدارت هارييت واحست بالارتياح عندما رأت الدكتور شيرون. لم يرتد الدكتور معطفه الأبيض لكنه احتفظ بوقاره. تردد قليلاً ثم تقدم نحو هارييت محيياً.

- آنسة انغرام. انا سعيد بلقائك ثانية. هل اتيت لزيارة سوزان؟

حزرت ان الطبيب لم يعرفها بعدما رآها وهي متعبة في الصباح. لكنه خبأ دهشته ببراعة. قالت وهي تصافحه:

- اتساءل ان كنت تسمح لي؟

- لا مانع لدي يا آنسة، انما اخشى ان تجديها نائمة. كانت مستيقظة عندما جاء صديقك، لكن الآن. . .

- صديقي؟

نظرت اليه هارييت بدهشة فاومأ الطبيب قائلاً:

- اجل. لاروش - الكونت دو روشفور. انه صديق لك أليس كذلك؟

تقلصت اصابع هارييت على حقيبتها وسألت:

- هل عاد؟

- اجل وكانت سوزان تتناول طعام العشاء. بدت مسرورة جداً حين رأته. لكن بما انك ولية امرها، فيجب ان تصارحيني اذا كنت اخطأت بالسماح له بزيارتها؟

- اوه كلا. . . كلا.

هزت رأسها بعنف، بيد انها احست بقلق لما سمعته. لماذا؟ لماذا لا يستطيع اندريه ان يزور سوزان ان اراد؟ من الواضح ان سوزان لا تمانع فلماذا تمانع هي؟

احس الرجل بانزعاجها فقال لها:

- تعالي، سنذهب ونرى ان كانت مستيقظة.

لكن سوزان كانت نائمة تتنفس بعمق. لونها طبيعي وكأن على شفتيها ابتسامة. وضع الدكتور شيرون اصبعه على جانب عنقها وهو يراقب ساعته ثم عاد الى حيث تقف هارييت عند مؤخرة السرير وقال هامساً كي لا يزعج الفتاة:

- تحسنها جيد. اذا لم تظهر عوارض التسمم في ساقها صباح غد، اعتقد اننا سنسمح لها بالمغادرة. لكن عليك ان تعديني باحضارها فوراً اذا حصل تغيير في اللون.

- اجل.

اومأت هارييت وتقدمته نحو الممر. وفي طريقهما الى بهو الانتظار، اقترح الدكتور شيرون قائلاً:

- من المؤسف انك اتيت لزيارتها وكانت نائمة. هل تسمحين بان ادعوك لتناول العشاء؟

نظرت اليه من طرف عينها. كان وجهه جدياً ويدل على ترقب جعل زرقة عينيه اعمق.

- انا متأكدة يا دكتور ان لديك عملاً.

لم تشأ ان ترفض الدعوة بقسوة، لكنه هز رأسه قائلاً:

- لقد رجعت الى العيادة لاسأل الممرضة جاستون ان كان هناك حالة طارئة. وبما انه لا يوجد طوارىء، فانا حر هذه الليلة.

توقف ليراقب تصارع العواطف على محياها المعبر، واضاف:

- ارجوك! سيشرفني ان تشاركيني العشاء.

ترددت هارييت. اعجبها الدكتور شيرون لانه رجل ذكي ولطيف، لكنها لم تشأ ان تورط نفسها مع اي رجل وخصوصاً ممن يعرفون اندريه. فغمغمت وهو يفتح لها الباب المروحي لتمر:

- لا ادري... لا اشعر بجوع شديد.

ابتسم الطبيب، وافتكرت، كم يبدو اصغر سناً عندما يضحك... قال:

- اذن تعالي وراقبيني اتعشى.

فضحكت قائلة:

- حسناً.

وافقت بذهنها وهي تؤكد لنفسها انه لا يوجد سبب يمنعها من قبول الدعوة. فهو رجل وسيم، والبيت الخالي الذي ينتظرها لا يعجبها. ربما سهرة مع شخص موضوعي لا يعرف عنها شيئاً قد تساعدها.

تناولا العشاء في مطعم يطل على الساحة. كانت النافورة مضاءة في الليل والمياه تنساب منها بألوان مختلفة. ومع ان المطعم صغير، الا انه رائع! وجدت نفسها تتذوق فطائر الكبد المدقوق المشهورة في هذه المنطقة، ثم الدجاج المطبوخ بالكريما.

وبعد فترة ابتسمت له عبر الطاولة المضاءة بالشموع واعترفت قائلة:

- لم اعتقد بالفعل اني كنت جائعة يا دكتور شيرون.

- وانا حزرت انك لن تستطيعي مقاومة طعام هنري المغري... على فكرة اسمي مرسيل، اود ان تناديني به.

حاولت هارييت لفظ اسمه ثم وضعت كأسها على الطاولة وقالت:

- اسمي هارييت.

اجاب الطبيب:

- لم اعرف احداً يدعى بهذا الاسم.

لفظ اسمها كما يفعل اندريه دون ان يلفظ حرف الهاء.

تساءلت عما كان يفعله اندريه هذه الليلة، وهل اخبر جدته وابنه عن الحادث الذي اصاب سوزان؟

لقد علمت الكثير عنه اليوم، لكن هناك اشياء كثيرة لم تعرفها بعد، وسوف لا تعرفها ابداً...

كان مرسيل رفيقاً مسلياً، وبالرغم عنها تمتعت هارييت بالسهرة. حدثته عن عملها وشغفها بالسيراميك، ونصحها باصرار ان تشاهد البورسلين والأواني المطلية بالميناء صنع ليموج. وافقت بأن ليموج جديرة بالزيارة لكنها زارتها مع تشارلز منذ بضع سنين واحبت المنطقة انذاك. ومؤخراً عندما اقترح عليها تشارلز ان تشتري عقاراً هنا اهتمت بالموضوع.

بما انها جاءت بسيارتها الى بلسوربو، لم يحظ مرسيل بمرافقتها الى البيت. كان رجلاً لطيفاً واستمتعت برفقته، اوصلها الى حيث اوقفت سيارتها بقرب الساحة. وقال:

- سأراك غداً. هل تعرفين طريق بيتك جيداً؟
- اعرفها تماماً.

فتحت باب سيارتها قبل ان يقوم بأية حركة للمسها. وقالت:

- شكراً للسهرة الممتعة.
- كان هذا من دواعي سروري.

اجابها بتهذيب ووقف يلوح لها بيده.

لقد حل الظلام وكانت الطريق تلتوي امامها. تساءلت ان كانت حقاً تعرف الطريق الى البيت. وتنفست الصعداء عندما رأت اللافتات على يمينها وتأكدت من مفترق بيتها. سمحت لسيارتها ان تنحدر قبل ان توقفها امام البيت واذا بها ترى سيارة اخرى امامها. كانت سيارة اندريه السيتروين. كاد قلبها يتوقف عندما اطفأت محرك سيارتها وترجلت، نظرت بقلق نحو البيت، لكنها لم تر اضواء. اجفلت حين انفتح باب السيتروين وخرج اندريه. لم تر سوى جانب وجهه في ضوء السيارة الداخلي عندما فتحت الباب. سألته وهي تحس بالذنب اذ تذكرت كيف قضت امسيتها:

- ماذا تفعل هنا؟

لم يجبها بل توجه نحو البوابة قائلاً:

- هل ندخل؟

ارادت ان تجادله لكن حدسها حذرها من ان تتحداه، فدخلت البوابة ومشت عبر الممر. وحالما فتح الباب سبقها اندريه واضاء المصباح بينما كانت تسدل الستائر الصفراء. ثم استدارت لتواجهه وهي واعية بمظهرها وما سيفسره به. الليلة يرتدي بنطلوناً اسود وقميصاً حريرياً، واللون القاتم الذي يرتديه يظهر مزاجه المعكر. وقف قرب الموقد وقال بهدوء:

- هل ذهبت الى المستشفى؟
- اجل كما فعلت انت.

احنى رأسه واستوضحها:

- هل قالت لك سوزان ذلك؟
- كلا. الدكتور شيرون اخبرني.
- هل رأيت شيرون، وماذا قال لك؟

بللت هاريت شفتيها:

- قال انها تتحسن انما كانت نائمة.
- احقاً؟

لاحظت انه يتكلم بالفرنسية كلما احس بتوتر ما، وتابع يقول:

- هل انتظرتها حتى استيقظت من النوم؟
- كلا...

تضايقت وغضبت لذلك. فماذا يعنيه كيف تقضي وقتها؟ قالت:

- كلا... في الواقع تناولت العشاء مع الدكتور شيرون.

وهنا لاحظت وجه اندريه يتقلص.

- احقاً؟
- انك لا تمانع، أليس كذلك؟ انا فتاة حرة واستطيع ان اختار كيف ومع من امضي سهراتي.

نظر اليها ببرودة قائلاً:

- وهل قلت خلاف ذلك؟
- كلا لكن... اوه... انه ليس بالأمر المهم.

هزت رأسها بخيبة وشعرها الكثيف يتأرجح حول كتفيها وقالت:

- لم تقل لي لماذا انت هنا.

وضع يديه خلف ظهره فانفتح قميصه واجاب:

- جئت حسب توصيات لويز، لادعوك الى العشاء.

فاحست هاريت بموجة خجل تغمرها وتابع هو بصوت اجوف:

- بالتأكيد ان الدعوة متأخرة الا اني احسست بالقلق عندما لم تعودي من المستشفى فقررت ان انتظرك هنا.
- فهمت.

وضعت حقيبتها على الطاولة دون ان تنظر اليه واردفت:

- انني آسفة.
- لا فرق. المهم انك الآن هنا.

اهتمت هاريت للأمر، وكالمعتاد احست انها المخطئة فقالت بارتباك:

- ارجوك ان تشكر جدتك على الدعوة. ربما استطعت تلبيتها في وقت آخر.

فنظر اليها قائلاً:
- اخبرني بول انك ترفضين المجيء الى منزلي.
احمر وجهها وهتفت تدافع عن نفسها:
- كان الأمر يختلف. كان هذا قبل... قبل...
- قبل ان تعرفي ان زوجتي قد ماتت؟
حركت هاريت كتفيها قائلة:
- ربما.
تقلصت اساريره وقال بقسوة:
- لم اعتقد ان الأمر يهمك.
فشهقت قائلة:
- حسناً، كنت مخطئاً.
- حقاً؟
اتسع انفه غيظاً، ولاحظت انه يضبط اعصابه بقوة ارادته. قال:
- مع العلم انك بعد الظهر رفضتني بكل اوتار كيانك.
اسعدها وجود الطاولة بينهما، فاتكأت عليها قائلة:
- من الأفضل ان تذهب الآن فأنا متعبة.
ارخى يديه وحاولت هاريت لآخر مرة ان تتصرف بشكل طبيعي. قالت:
- شكراً. اشكرك ثانية على كل ما فعلته اليوم.
اظهر حركة عدم مبالاة واجاب بصوت فظ:
- كنت سأفعل هذا لأي كان. بالمناسبة، هناك شيء آخر، يجب ان تطلبي من الطبيب الكريم ان يقدمك الى زوجته في وقت ما.
احست باللون يفارق وجهها وهمست لاهثة:
- انه... متزوج؟...
- منذ عدة سنين، انت قليلة الحظ باختيارك لمرافقيك!
ارتجفت شفتاها وقالت بغضب:
- ايها... ايها الوغد! لقد تمتعت بابلاغي هذا، أليس كذلك؟ كم يسعدك ان تراني اتلوى من الخجل.
تضايق اندريه ورد بجفاف:

- لا تكوني بلهاء. هل تفضلين ان اخفي الحقيقة عنك؟ ماذا كنت ستفعلين لو ان السيدة شيرون جاءت تطرق بابك، كما فعلت في الماضي مع نساء اخريات، واتهمتك بالفاظ مهذبة، انك انثى منحلة الاخلاق؟
قالت هاريت بطريقة آلية وهي تشيح نظرها عن وجهه الساخر:
- نساء! في كل حال انت الذي تقول انها تفعل ذلك.
- ومن المؤكد ان كلامي ليس كافياً أليس كذلك؟ اذن... ستكونين في امان هنا بمفردك.
- لا تزعم ان الأمر يهمك.
اجابها ببرود جعل انفاسها تتسارع:
- تعلمين انه يهمني، كل ما تفعلينه يهمني، لكن هذا شيء تعلمت ان اعيش معه.
انفرجت شفتاها كأنها تختنق وقالت:
- ارجوك، لا تقل لي اشياء كهذه. كلانا يعلم انها ليست صحيحة، وانا غير مستعدة لان اعيد الكرة.
قام اندريه بحركة انهزامية وقال:
- انت قاسية جداً يا هاريت. لكن ربما انت على حق وقد فات الأوان.
تنهد ثم تابع:
- لم اصدق، ولكن...
وهز رأسه.
ادارت نحوه عينين موجوعتين وسألته بلوعة:
- ماذا تريد مني يا اندريه؟ ما تريدني ان اقول؟ انني سامحتك؟ انني نسيت انك عاملتني كفارس مغوار؟
رد عليها بخشونة:
- فارس؟ ما هذا؟ انا لست بفارس.
- كلا انت لست هكذا. انت كل شيء باستثناء ذلك.
- اذن لماذا تقولين هذا؟
- اوه...
طردت الكلمة بحركة من يدها. وتابعت:
- هذا يعني... اهمال، عدم تفكير. اظنك تعلم ماذا يعني.

- اظنك تبالغين. حسناً، ان قبولي بمجيئك الى باريس قد لعنني في نظرك، لكن يجب ان اذكرك بانك اردت المجيء، بل يمكنني القول انك توصلت الي ان اوافقك على مجيئك.

- اوه. هذا اجمل ما سمعته منك... انك تضع اللوم علي وحدي، اليس كذلك؟

- اللوم؟

نظر الى السماء كأنه يطلب منها وحياً وتقدم متجاهلاً احتجاجاتها وامسكها بقوة من كتفيها:

- بالله عليك، لماذا كان علي ان اشعر بأي لوم؟

كان قريباً جداً مما اشعرها بارتباك وشبه اختناق، وعزت ضعفها تجاهه الى الارهاق الذي واجهته هذا اليوم. لكن عليها ان تنتصر على هذا الضعف وبالطريقة الوحيدة التي تعرفها. فسألته وهي ترتجف وتنظر في عينيه:

- كيف تحسبني شعرت حين وصلتني رسالتك؟ لا بد انك كنت تعلم انه لم تكن لدي اية فكرة.

فتقلصت شفتاه وقال:

- وكيف تظنيني شعرت وانا اكتب الرسالة؟ صدقيني، لم يكن الامر سهلاً.

فصرخت يائسة:

- اذن لماذا فعلت ذلك؟

فهز رأسه بتعب وقال:

- تقصدين لماذا قبلت بقدومك الى باريس؟

فهتفت باختناق:

- لماذا جعلتني اقع في حبك؟

اسودت عيناه وقال:

- كان احساساً متبادلاً ولم تكن لي اية سلطة عليه.

- ليتك لم تتكلم معنا في قاعة المزاد!

- وانت ليتك احترمت نصيحة تشارلز، اليس كذلك؟

هز رأسه ثانية وتابع يقول بندم:

- انا حاولت يا هارييت. توقفت عن لقائك لكنك اردت ان تقابليني. والله يسامحني، لم استطع ان ارفض طلبك.

فابتعدت عنه قائلة:

- ماذا... ماذا تعتقد انه جرى لي بعد... بعد ان كتبت لي الرسالة؟

تنهد قائلاً:

- حاولت ان لا افكر. حاولت ان لا اتصورك مع رجل آخر.

اختنق صوته، فنظرت اليه باهتمام قائلة:

- الا تفكر انه كان ممكناً...

توقفت واشاحت عنه وحاولت ثانية.

- ألم يخطر لك ابداً احتمال ان اكون قد دفعت ثمناً غالياً لتلك الليلة؟

- ماذا؟

ادارها لتواجهه ونظر اليها باهتمام متوهج وقال ويده تضغط بعنف على ذراعها:

- ماذا تقولين؟

اجابته با رتجاف:

- ماذا... ماذا تظنني احاول ان اقول؟ افهمت؟

فصاح وهو يطبق يديه على وجهه ويشد جلد خديه الى الوراء قبل ان ينزل ذراعيه:

- كلا! يا آلهي! كلا!

تألمت هارييت وهي تراه يتعذب لدى استيعابه معنى كلامها.

كان البيت هادئاً، وكانا وحيدين كأنهما الوحيدان الباقيان على قيد الحياة ولم تعد تهتم بشيء سوى هذه اللحظة، وعلمت انها لحظة اللارجوع...

ثم سمعت صوتاً مفاجئاً يهتف بحسرة:

- يا آلهي!

احست هذه الصرخة تسقط على رأسها كماء مثلج، ولكن بالنسبة الى اندريه كان الأمر اسوأ. اذ كان بول يقف مشدوهاً في الباب، وهو ينظر اليها كأنه لم يشاهد احدهما من قبل. ثم تلفظ بعبارة نابية وسمعاه يخرج متعثراً في الظلام. صرخ اندريه بيأس ووجهه شاحب من شدة الانفعال:

- هارييت. هارييت، يجب ان الحق به.

- اجل.
كان صوتها خالياً من التعبير، وتركز بصرها على الأرض فنظر اليها قائلاً:
- هاربيت، لا تدعي هذا الأمر يقف بيننا...
- وما العلاقة التي تربطنا؟
- هذا ليس صحيحاً.
والتفت ليحدق في سواد الليل، ثم نظر اليها قائلاً:
- هاربيت، ارجوك دعيني اعود اليك...
- كلا.
- ماذا تقصدين بكلا؟
- اقصد كلا، يعني النفي. آه... اذهب يا اندريه. اذهب واعثر على ابنك. الا ترى انني ارغب فقط في ان اترك وشأني؟
- انت متوترة...
- كلا، كنت متوترة، والآن عاد الي رشدي. اشكر بول بالنيابة عني. فلو لم يتدخل لكنت قد فقدت كل احترام لذاتي!
تهدل كتفاه وبدا على وجهه التعب الشديد، وللحظة تحركت مشاعرها. ولكن عندئذ تذكرت زوجته المسكينة والحالة التي كانت فيها.
لا شيء يغير ما حصل من قبل. كان الماضي يقف حائلاً بينهما. وبما انها لم تقدر ان تثق به سابقا فكيف يمكنها ان تثق به الآن؟

٩ - الرحيل

قالت سوزان محتجة بامتعاض:
- لماذا علينا ان نعود الى انكلترا؟ اعلم ان ساقي بحاجة الى وقت لتشفى انما لماذا لا يكون هذا في روشلاك؟
كانت هاربيت تلف حول منعطف وشتمت بصمت حين احست برجة فجائية في مبدل السرعة، ثم اجابتها:
- سوزان، قال الدكتور شيرون ان الاستحمام المنتظم ضروري، واخشى ان اقول له اننا نستعمل الغدير او ذلك المغطس الاثري البدائي الذي وجدته في الكوخ،
- لكن الحمام نظيف ويمكنني استعماله.
- كل يوم؟ ومن الذي سيحمل الماء اليه؟ كوني واقعية يا سوزان، هذا ليس معقولاً.
اعترضت سوزان قائلة:
- لكنك لم تذكري شيئاً عن ذلك يوم امس.
تنهدت هاربيت واجابت:
- بالأمس كلانا لم يدرك اهمية الموضوع. الآن صرت قادرة على التفكير. انا آسفة مثلك، انما لا اجد حلاً آخر.
تنشقت سوزان الهواء وتمتمت وهي على وشك البكاء:
- تقصدين بيت جدتي، أليس كذلك؟ أنسيت انه ليس لدي بيت اذهب اليه؟
استصغرت هاربيت نفسها واوضحت:

- ليس عليك ان تذهبي الى جدتك ان لم ترغبي في ذلك. بوسعك البقاء معي في الشقة على الأقل حتى يحين وقت العودة الى المدرسة.

- احقاً؟ هل استطيع ذلك؟

اشرق وجه سوزان وتابعت:

- لا امانع، اقصد ان هناك الكثير من الأشياء في لندن اليس كذلك؟ انني اعرج في الوقت الحاضر وسيكون الأمر اسهل.

اجبرت هاريت نفسها على الابتسام وهي تحاول ان تفهم ماذا ستعني لها العودة الى لندن. لم تنم في الليلة الماضية، واحست هذا الصباح كأنها ميتة. لكن بعض مساحيق الوجه غطت الشحوب. عيناها فقط كانتا تفضحان عذاب افكارها الممزقة.

ادركت ان ما كانت تفعله لم يكن سوى الأفضل. لقد عاشت ثماني سنوات بدون اندريه، وستتعلم ان تعيش بدونه مرة اخرى... ربما احبها بطريقته الخاصة، فلا شك انه يأسف لما حصل ولكن هناك اموراً لا يصلحها حتى الزمن... من الأفضل الابتعاد الآن قبل ان تتدهور علاقتهما وتلقى نهايتها المحتومة.

ربما كان حادث سوزان داعي خير، على الأقل منحها عذراً مقبولاً للرحيل، وعند وصولها الى انكلترا ستتصل بالوكالة لتبيع البيت... سوف تحزن لأنها تعلقت بأرضه وجدرانه وبرائحة الخزامى البرية الفائحة في ارجائه.

انها تتطلع الى انكلترا، الى لندن والى تشارلز. لا شك انه سيندهش لغيابها لشهر واحد فقط لكنها تريد العودة الى العمل لتشغل عقلها ويديها.

بعد ان ركزتها خالتها على المقعد الطويل خارج مدخل البيت سألتها سوزان:

- متى تظنين اننا سنرحل؟

ثم نظرت للشمس الساطعة واردفت:

- الن تندمي على هجرك كل هذا؟

- احسبني ساجد شيئاً عما قريب.

اكدت هاريت ثم اضافت:

- والآن، هل ستكونين على ما يرام اذا ذهبت لأحزم امتعتنا؟

- لكنك لم تعلميني بموعد رحيلنا!

تنهدت خالتها واجابت:

- لا اعرف، ربما غداً او بعد غد. يجب ان اعلم الدكتور شيرون اولاً ليعطيني ملفك للطبيب في لندن.

فعبست سوزان قائلة:

- ليتنا نبقى هنا. الا تغيرين رأيك يا هاريت؟

- كلا.

كانت هاريت حازمة بجوابها فتهدلت كتفا سوزان واولتها ظهرها.

توقعت هاريت قدوم اندريه طيلة النهار، لكنه لم يأت مع حلول الظلام. ذهبت لتنام وكان يساورها احساس بالخيبة. ضربت وسادتها وقالت لنفسها: يا الهي، ماذا اريد بعد كل هذا؟ انا التي طلبت منه ان ينصرف اكثر من مرة، ولم اتذمر لأنه فعل. لكنها تود ان تراه للمرة الاخيرة، فكرت بيأس، لكي تقول له انها راحلة وتودعه، وبذلك تنتهي العلاقة بوضوح.

سافرتا بعد ظهر اليوم الثاني واتجهتا شمالاً الى الهافر وامضيتا الليلة في استراحة على الطريق. وصلتا الى الهافر في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي، ولحسن حظهما تمكنتا من تغيير الحجز. استغلتا حالة سوزان لتصعدا على متن المركب المزدحم كما ان جاذبية هاريت ساعدت في اقناع موظفي المرفأ. قضتا ليلتهما في فندق صغير وابحرتا في الصباح لتصلا ساوث هامبتون قبل الظهر. مغادرة السفينة اخذت وقتاً اطول، ووصلتا لندن عند الغروب. احست هاريت بالارتياح لأن الرحلة كانت طويلة ومرهقة، وتاقت الى استعادة شيء من حياتها الطبيعية السابقة.

كانت شقتها في منطقة نايتس بردج الأنيقة، وكان الفضل لتش[illegible] حصلت عليها بايجار معقول. في أي حال لم تحب ان تسكن في منطقة اخرى من لندن، ويناسبها ان تكون على مرمى حجر من هارودز.

وجود سوزان في الشقة لأول مرة اثارها وقالت وهي تنظر الى تحت من الطابق الرابع:

- ما اجمل هذه الساحة!

اعترفت هاريت انها تحب اناقة البناية الهادئة التي تسكنها وهي تقيم هنا

منذ ثماني سنوات. تذكرت اهلها فنظرت الى سوزان قائلة:
- يجب علينا الاتصال بجدتك.
اجابت سوزان:
- هل يجب ان نفعل؟ الا نستطيع تأجيل ذلك الى ان تشفى ساقي؟ ان جدتي سريعة الانفعال وتقلق لأبسط الاشياء.
- حبيبتي، عليّ ان اخبر تشارلز بقدومنا، ولا استطيع ان اخبر تشارلز بدون ان اخبر امي.
جلست سوزان على الاريكة في قاعة الجلوس واراحت ساقها على وسادة واجابت:
- حسناً، لكن لا تطلبي من الجدة ان تأتي الى هنا فأنا لا أتحمل اهتمامها المفرط بالأمور.
اتصلت هارييت بتشارلز اولاً فصاح فرحاً:
- هارييت!
كان جلياً ان تسمع صوته المتمق مع انه بدا مندهشاً جداً لعودتها.
- اين انت؟
- في الشقة، عدت الى البيت لكن سوزان متوعكة!
- ماذا تقصدين يا هارييت؟ لماذا لست في فرنسا تتمتعين بالطقس الجميل؟
اجابت وهي تنظر الى الفتاة محاولة اخفاء مشاعرها:
- حصل لسوزان حادث بالمنجل. لقد جرحت ساقها. وكما تعرف لا يوجد حمام في البيت، واقترح الطبيب ان انقلها الى مكان تتوفر فيه اسباب الراحة.
- اوه هارييت!
انزعج تشارلز ولم تفهم لماذا وقد حسبته سيفرح لعودتها... اجابته بصوت يبدي الألم:
- لا بأس، سترتاح مني لأربعة اسابيع اخرى. سوزان تسكن معي هنا، وسنجد اشياء كثيرة تشغلنا.
فصاح تشارلز:
- هارييت! هارييت! عما تتحدثين؟ لا نستطيع الكلام على الهاتف. ما

مشاريعك ليوم غد؟
- سأرتاح، لقد ارهقتني قيادة السيارة لثلاثة ايام متواصلة!
- حسناً، بعد غد يكون الأحد، ما رأيك لو تشاركاني الغداء؟
- يبدو عرضك شيقاً يا تشارلز.
- عظيم. تفضلا الى بيتي، السيدة ريتشي ستكون سعيدة بتحضير الغداء. سأنتظركما في الثانية عشرة ليتسنى لنا الكلام قبل الطعام.
فغمغمت هارييت بارتياب:
- كلامك فيه نذير شؤم.
فضحك تشارلز وقال:
- اذن الى اللقاء في يوم الأحد، قبّلي سوزان بالنيابة عني واوصيها ان تنتبه لنفسها في المستقبل.
طال حديث السيدة انغرام بالنسبة الى حالة سوزان. وكانت هارييت قد ذكرت ما حدث للفتاة ثلاث مرات. فانفعلت الجدة وسألت:
- لا اتصور انك سمحت لفتاة بعمر سوزان ان تستعمل المنجل!
اعادت هذه العبارة عدة مرات وهارييت تحاول اقناعها بدون جدوى انها لم تسمح لسوزان بذلك. وتابعت امها تقول باصرار:
- لا تحاولي التهرب. من الواضح انها استعملت المنجل وكان من الجائز ان تقتل نفسها! هل تتصورين ذلك! الا تظنين انني تعذبت بما فيه الكفاية عندما قتلت والدتها... ووالدها ايضاً؟
اجابت هارييت وهي تنظر الى سوزان بعطف:
- في اي حال انها تتماثل للشفاء الآن...
- يجب ان تحضريها فوراً الى هنا. من الواضح انك لست مؤهلة لتحمل مسؤولية فتاة بعمرها. كنت اتردد بالسماح لها بالذهاب معك خصوصاً بعد...
لم تكمل الجملة وتابعت:
- في اي حال، لك حياتك في لندن ووجود سوزان سيعيقك عنها.
- قلت يا امي انها تستطيع البقاء هنا...
كانت سوزان تبدو غير مرتاحة وغير مدركة تماماً لما يجري على الهاتف وراحت تتوسل الى خالتها بعينيها بان لا تتأثر بكلام الجدة. ابتسمت

هارييت محاولة التركيز على كلام امها. . .

- ماذا ستفعل سوزان طول النهار اثناء غيابك بالمتجر؟ هل يمكنها المشي ام اصبحت كسيحة؟ لا تستطيع البقاء لوحدها في الشقة طيلة النهار!

تنهدت هارييت قائلة:

- سوزان تستطيع التحرك يا امي. انها ليست كسيحة ولن تكون وحيدة طول النهار فأنا لن اباشر عملي قبل شهر من الآن، واذا ذهبت الى المتجر سيكون ذلك لوقت قصير.

- في اي حال لا يعجبني هذا وانا متأكدة انه لن يعجب والدك ايضاً. من الأفضل ان نزوركما لنرى سوزان ونسألها رأيها.

- طبعاً هذا يتوقف عليك.

- لا نستطيع المجيء غداً لأننا ننتظر أليس والأولاد. اذن يوم الأحد.

- ذلك غير ممكن لأننا سنخرج الى الغداء يوم الأحد.

- انتما ستخرجان؟ مع من؟ من يعرف بعودتكما؟

- ادركت هارييت انها في مأزق فقالت بسرعة:

- كان تشارلز هنا يقوم بتهوية البيت وطلب منا ان نتناول الغداء معه يوم الأحد.

ابتسمت سوزان، ورفعت خالتها شعرها بتعب وقالت:

- هل هذا كل شيء يا امي؟

استاءت السيدة انغرام فأجابتها:

- تعلمين يا هارييت ان والدك لا يحب السياقة بعد نهار عمل، وانا لا احسن استعمال القطار.

- اني آسفة. . .

- بوسعك ان تتناولي الغداء في يوم آخر مع الرجل الذي يدعى هوكني. انت تفتعلين العوائق. كيف اعلم انك تقولين الحقيقة؟ لا اصدق انك وجدته في البيت عند قدومك.

اجابت هارييت ثانية:

- آسفة.

وكانت حقاً آسفة لأن علاقتها بأهلها وخصوصاً بامها لم تكن على ما يرام منذ حادثة اندريه. . .

احست بالغرابة عندما استيقظت على صوت السيارات بدلاً من صوت العصافير التي اعتادت على تغريدها . . . وغريب ايضاً ان تستعمل ابريق القهوة الكهربائي بدل ان تضيء الغاز، وان تستحم بالدوش بدلاً من ان تغطس وجهها بالماء البارد كما كانت تفعل هناك. ومع ان الوضع مختلف فلم يخل من حسنات. . . التسويق، بيريز، الخادمة التي سألت ان كان باستطاعتها ان تقوم بالتنظيف يوم الاثنين، واغراضها الخاصة كقطع السيراميك التي اشتاقت اليها وارادت تفقدها.

قضتا السبت بكسل، تلذذت سوزان بمشاهدة التلفزيون اما هارييت فتصفحت الجرائد وغسلت ثيابها المتسخة وقرأت عن الاضرابات وارتفاع اسعار الاغذية انما لم يحصل شيء خارج عن المعتاد اثناء غيابها.

كان منزل تشارلز في الطابق الأخير في بناء فيكتوري مستحدث. غرف واسعة وسقوف عالية ومجموعة الانتيكا والاثاث، كل هذا اعطى نوعاً من الراحة لمنزله. كان يسكن وحيداً باستثناء قط اسود كبير، وقد لقبت هارييت القط باسم بيرسوس لأنه يستطيع القفز بين التحف بدون ان يوقعها وكأنه مجنح.

استقبلتها السيدة ريتشي وضحكت بقلق عندما رأت سوزان تعرج وهي تصعد الدرج متكئة على ذراع خالتها. ادخلتها البهو الصغير الذي بدا اضيق لوجود صندوق احضره تشارلز من جوهانزبرغ قالت السيدة ريتشي:

- لماذا استعملت المنجل بدل المقص الاكثر سلامة وفعالية؟

فردت هارييت بطول اناة:

- لم يكن هناك مقص.

ثم ساعدت سوزان على خلع معطفها، ووضعت سترتها على الصندوق وهي تسأل:

- كيف حالك يا سيدة ريتشي؟ وكيف حال الروماتيزم؟

دخل تشارلز الى الصالون ووجهه يعبر عن سعادته بلقاء هارييت. وقال:

- عزيزتي، كيف حالك وكيف المريضة؟

اجابت سوزان:

- ساقي في تحسن مستمر.
وجلست فوراً على مقعد مغطى بسجادة مطرزة وكأنها تكذب جوابها المتفائل.
الجلوس في صالون تشارلز مريح لأن النوافذ المفتوحة تسمح للهواء بالدخول. كان الطقس ثقيلاً في الخارج، ولاحظت تشارلز ينظر اليها وهي تتكلم مع سوزان. تساءلت لماذا يرغب في التحدث اليها؟ هل يريد التأكد من انها عادت سالمة؟ ام ان لدعوته معنى آخر؟ انها معتادة على دعوات تشارلز، وربما اليوم تخيلت انه قلق عليها.
طعام السيدة ريتشي كان لذيذاً. حساء وروستو ثم مهلبية تشتهر بها منطقة يوركشاير.
وقال تشارلز:
- طلبت من السيدة ريتشي ان تحضر هذه الأطباق لظني بانك ستتلذذين بغداء انكليزي.
سألته هاريت:
- هل دعوتنا فقط لتناول الغداء؟
لم يجب تشارلز لكنه نظر اليها على غير عادته مضطرباً. لم تنتبه سوزان لما جرى لأنها كانت تلعب مع القط على السجادة. اقترح تشارلز ان يكلمها على انفراد فدخلا غرفة المكتب، وبادرته هاريت بالسؤال:
- ما الأمر؟ لماذا تتصرف بهذه الغرابة؟ ماذا جرى اثناء غيابي؟
اجابها:
- لم يحدث شيء، تفضلي بالجلوس هنا قرب المكتب فأنت تثيرين اعصابي بخطواتك القلقة.
فردت بنفاد صبر وهي تجلس قبالته:
- انت الذي تثير اعصابي! ماذا يجري؟ ما الأمر؟ لماذا اردت الكلام معي؟
تنهد تشارلز وقال:
- هل تمتعت بعطلة سعيدة؟ كيف كان رب البيت؟
- تشارلز!
- ابنتي العزيزة، لم آت بك الى هنا للاستجواب. استطيع ان ادعو

مساعدتي الى الغداء بدون . . .
قاطعته هاريت بخشونة:
- البيت على ما يرام، لكن المالك لم يعرف انه بيع، وبالطبع كان يحتاج لبعض التصليحات.
هز تشارلز رأسه بأسف وسأل:
- هل كانت حاله سيئة؟
- لقد تدبرنا الأمر.
- وهل ستعودين؟
كان يريد ان يعرف وفهمت انه يخبيء شيئاً، فردت بصوت اجوف:
- لن اعود وسأبيع البيت الى اندريه ان اراد ذلك.
نظرت الى تشارلز بتمعن واحست ان شكوكها في محلها، فتشارلز يدري ان اندريه يعيش في روشلاك وسواء علم او لم يعلم انه يملك البيت، فلم يصدم عندما سمعها تلفظ اسم اندريه. واجه نظرتها المتهمة وقال:
- حسناً، كنت اعرف ان لاروش يسكن المنطقة. لكنني لم اعرف انه يملك البيت، صدقيني. اظن انك التقيت به ثانية. ماذا حدث؟
تنفست هاريت بغضب واجابته:
- انك تجلس هنا وتجرؤ على القول ان اندريه يسكن قرب روشلاك، وتنتظر مني ان اخبرك بما حدث! يا لأعصابك القوية!
انحنى تشارلز ليربت على يدها الا انها ابتعدت عنه فقال بأسى:
- هاريت! لا تغضبي. فعلت فقط ما كان علي ان افعله.
- فعلت الذي خيل اليك انه صواب! لو اردت يا تشارلز ان تؤذيني عمداً لما وجدت طريقة افضل.
- ألانك لا تزالين تهتمين به؟ انني اعلم، ولكن يا هاريت. . .
فوقفت تقول:
- من الأفضل ان نذهب الآن قبل ان اقول شيئاً اندم عليه.
- كلا انتظري! لا تذهبي! اسمعيني من فضلك.
توقفت هاريت وقالت:
- لا فائدة يا تشارلز.
- ارجوك، اجلسي.

- لماذا؟ ماذا لديك من كلام؟
- هز رأسه وقال:
- عليك ان تسمعي ما اود قوله قبل ان تسارعي الى استنتاجات خاطئة.
ترددت هارييت وقالت:
- اوه، تشارلز...
- ارجوك يا هارييت الا تريدين ان تسمعي ما عندي؟
- ماذا عندك لتقوله؟
تنهد تشارلز قائلاً:
- اجلسي.
تنفست بعمق وعادت تجلس قائلة:
- حسناً لكنك تضيع وقتك. فلن تحصل مصالحة كبيرة بيني وبين اندريه، ولا احسبك تريد ذلك.
فنظر اليها بعينين مفعمتين بالحنان وقال اخيراً:
- هارييت، لا تتظاهري معي يا عزيزتي فأنا اعرفك منذ وقت طويل.
هل سيختلف الأمر لو قلت لك ان اندريه كتب لي رسالة خاصة؟

١٠ - الهاربان!

ران على الغرفة صمت كثيف استطاعت هارييت ان تسمع فيه دقات الساعة الفرنسية النحاسية التي تزين رف الموقد... ام انها خفقات قلبها تدوي في اذنيها؟
وقالت اخيراً وهي تحدق الى تشارلز بذهول:
- ماذا قلت؟ ان اندريه كتب اليك؟ متى؟
ربت تشارلز على كتفها ورفع ساقه على حافة المكتب واخذ يهز قدمه قائلاً:
- منذ ستة اشهر تقريباً. بعد عيد الميلاد، في وقت معرض آل جانينغ...
- اوه، لا تبال بمعرض جانينغ، لماذا لم تخبرني؟ قل لي، لماذا كتب اليك؟
فشبك يديه وقال:
- كانت زوجته قد ماتت لتوها. هل عرفت ذلك؟
اومأت هارييت:
- اجل، لقد اخبرني.
بدت الدهشة على تشارلز وسألها:
- ولكن ذلك لم يعن لك اي شيء؟
رفعت رأسها وقالت بارتجاف:
- عنى لي فقط انه كان يجتمع بي فيما زوجته تعاني من مرض عضال!
فردد قائلاً:
- مرض عضال! الا تعرفين ما هو؟

- كلا. ولا اريد ان اعرف... تشارلز، الى ماذا يقود كل هذا؟ هل تريد القول انه كان يعلم انني كنت سأشتري البيت؟

- كلا، كلا! من الأفضل ان تقولي لي ثانية كيف التقيت باندريه؟

- لماذا؟

- احب ان اعرف.

- ان كان لا بد ان تعرف، كان اندريه في البيت يوم وصولنا. لقد علم ان المنزل قد بيع وبدأ بتنظيفه.

- هل صدم حين رآك؟

عبست هارييت واجابت:

- اعتقد انني صدمت اكثر... لكن هذا شيء طبيعي، اذ لم اكن اعلم انه كان يراسلك!

- تابعي، ماذا حصل؟

- عرض ان يرد لي ثمن البيت، لم يسعه ان يفعل اكثر من ذلك لأن البيت بحالة يرثى لها.

- لكنك لم تقبلي؟

تورد وجهها واجابت:

- كلا، ليس من اجله ولكن من اجل سوزان. ولم يكن لدي الوقت لأجد بيتاً آخر...

- اذن بقيت.

- اجل، حتى اصيبت سوزان بالحادثة.

استوعب كلامها مفكراً وعاد يسألها:

- هل رأيت لاروش ثانية؟ لا بد انك رأيته.

فهتفت غاضبة:

- لماذا تفترض ذلك؟

- لأن من المستبعد ان ينبئك بوفاة زوجته فور التقائه بك، ام تراه فعل؟

خفضت بصرها واجابت:

- كلا. التقينا عدة مرات بعد ذلك.

- فهمت.

- في الواقع، هو الذي ساعدني في نقل سوزان الى المستشفى لدى

اصابتها وكان لطيفاً جداً.

نظر تشارلز الى رأسها المطأطأ وسأل:

- لكنك لا تفكرين الآن بلقائه ثانية؟

- كلا.

- ولماذا؟

- تشارلز، انت رب عملي لكنك لست المسؤول عني، ثم اني كنت احسب دائماً انك غير راض عنه.

تنهد تشارلز وقال:

- لم اوافق حتى رأيت ما حل بك.

- ماذا تقصد؟

انحنى الى الأمام واخذ يدها قائلاً:

- يا ابنتي، لا تغضبي، فانت تعلمين مثلما اعلم انك اصبحت صاحبة مهنة بالدرجة الأولى.

- وما العيب في ذلك؟

- لا شيء، لكنك لا تتصرفين بشكل طبيعي. لا تخرجين بما فيه الكفاية، والعمل هو هدفك الرئيسي في الحياة... لا تسمحين لأي رجل بان يقترب منك!

ارادت هارييت ان تبتعد عنه لكنه بقي ممسكاً بيدها. حدقت اليه بنظرة دفاعية وقالت بارتباك:

- الذي تقصده يا تشارلز، هو انني كبرت ولم اعد تلك الطفلة الصغيرة السهلة التأثر.

فأجابها بحزم:

- لقد تقوقعت داخل صدفة، هذا كل شيء، تظنين ان بامكانك الهروب من الحياة؟ لا، انت لا تستطيعين ذلك وعليك ان تدركي هذه الحقيقة سريعاً.

- اهذا ما قاله اندريه؟

- كلا، كلا، بالطبع لا. قلت لك ما قاله اندريه. ان زوجته توفيت وسأل عن احوالك وان كنت سعيدة. ولم اجبه.

وشهقت مستغربة.

- لم تحبه؟
- كلا، ما كان عساي ان اقول؟ انك تهدرين حياتك؟ او اخفي الحقيقة واقول له انك فتاة سعيدة وراضية؟
- انني سعيدة وراضية، على الأقل كنت كذلك!
- كنت تعيشين في عزلة.
ونهض تشارلز فأجابت:
- لدي اصدقاء...
- ليسوا مقربين ما عداي. اني اعتبر نفسي صديقك مهما حدث.
- لذلك قررت ان ترسلني الى فرنسا...
- بعدما كتب لي لاروش، قررت ان افعل شيئاً. عرفت انك تحبين فرنسا خصوصاً بعد الرحلة الى ليموج. فبدأت اتصالاتي لشراء عقار في الدردون. ثم اقنعتك بذلك، وقبلت بشغف. ثم قتلت اختك وزوجها وانت تعرفين ما حدث بعد ذلك.
هزت هارييت برأسها وكأنها لا تصدق، وغمغمت:
- الصدف لا تحصل دائماً.
- كانت صدفة ان يكون اندريه صاحب العقار الذي اخترته.
- ظننت هكذا.
وتنهدت هارييت عندما سألها تشارلز:
- كيف يبدو اندريه؟
فارتعدت واجابت:
- اكبر. اقسى.
- اقوى؟
- ربما هكذا!
قال تشارلز:
- مضت عليه اوقات قاسية كفيلة بتغيير مظهره.
رددت هارييت:
- اجل، وزوجته قاست الكثير.
قطب تشارلز حاجبيه وتابع:
- فواتير المستشفى تتطلب مالاً كثيراً، واضطر الى احضاره من مكان ما.

في اليوم الذي التقيناه في صالة المزاد في سان جرمان، كان يبيع بعض الأواني الفضية لآل روشفور. اظن انهم خسروا كل شيء وكانت لديهم اشياء ثمينة جداً... تغيرت احواله من الغنى الى الفقر المدقع.
اجابت هارييت:
- لا تحاول ان تجعلني اشفق عليه! لم يكن في يد زوجته حيلة.
- كلا واندريه لم يستطع عمل شيء لأن زوجته امضت آخر اثنتي عشرة سنة من حياتها في مستشفى للأمراض العقلية.
- ماذا؟
لحسن الحظ كانت هارييت جالسة حين سمعت هذا النبأ، وسألته بوجل:
- ماذا تقول يا تشارلز؟
- اقول ان زوجة لاروش كانت مصابة بمرض عقلي. عندما تزوجها كانت تشكو من الهستيريا، وحرم عليها ان تنجب اطفالاً. لم تستعد رشدها بعد ان انجبت ولدها.
قالت هارييت متحسرة:
- من المؤكد ان اندريه لم يخبرك كل هذا!
- كلا، اخبرني فقط بوفاة زوجته بالمستشفى بعد مرض طويل. فضولي دفعني الى الاستقصاء. عائلة روشفور ليست مجهولة في فرنسا.
خبأت وجهها بين يديها وقالت:
- يا آلهي!
فسرت كلمات تشارلز بأشياء كثيرة، وخصوصاً الرسالة التي تسلمتها من اندريه بعد عودتها من باريس، وفيها يعلمها بتهذيب انه لا يستطيع الزواج منها لأنه كان متزوجاً ولا يستطيع الطلاق.
لف تشارلز ذراعه حولها وقال بحنان:
- آسف يا عزيزتي، انما كان علي ان اخبرك، فمن حقك ان تعرفي.
رفعت هارييت وجهاً حزيناً وقالت:
- ماذا استطيع ان افعل؟ لم اعرف. لم افهم. ظننت... ليتني كنت اعلم...
- اجل ولكن ما كان بامكانك فعله؟

ارتجفت شفتاها وهمست:

ـ لا اعلم. لا اعلم.

اضاف تشارلز:

ـ يا للرجل المسكين! اخذ اكثر من نصيبه من التعاسة.

فقالت بزفرة حارة:

ـ انه يعتقد انني اكرهه.

ـ وهل تكرهينه حقاً؟

هزت رأسها:

ـ لقد حاولت. ظننت انني اكرهه لكن حين رأيته. . .

ـ ادركت انك لا تستطيعين؟

اومأت قائلة:

ـ انا احبه يا تشارلز. واعتقد انني احببته طيلة الوقت.

ـ هل يحبك ايضاً؟

حدقت امامها وقالت:

ـ لا اعرف، في كل حال فات الأوان.

ـ لماذا؟

ـ اوه تشارلز، لا يستطيع المرء ان يفتح ويقفل عواطفه وكأنها حنفية ماء. لو عرفت ربما اختلف الأمر.

ـ اذن هي غلطتي. كان يجب ان اخبرك.

ـ لا تتغابى.

نظرت اليه من خلال دموعها واكملت:

ـ ليس من المفروض ان تعلم. كان على اندريه ان يخبرني بنفسه.

طرقة على الباب انهت المحادثة. اطلت سوزان ونظرت باهتمام عندما شاهدت هارييت تبكي.

وهتفت:

ـ ما الأمر؟ هل انت غاضب من هارييت يا سيد هوكني؟

ـ كلا، كلا، كلا.

تقدم تشارلز من الفتاة ليعطي هارييت الوقت الكافي لتهدأ وقال لها موضحاً:

ـ كنا نتكلم عن صديق لنا واجه حظاً سيئاً جداً في الآونة الأخيرة. فحزنت خالتك.

ذهبت هارييت الى المتجر صباح الاثنين بعدما تأكدت ان سوزان ستكون على ما يرام اثناء غيابها لساعات، وهي تلهو بلعبة الرسوم المقطعة التي اعارها اياها تشارلز.

رن الجرس الصغير عندما فتحت هارييت الباب، واتى تشارلز بنفسه ليستقبلها هاتفاً:

ـ هارييت! لم اتوقع قدومك اليوم.

اقفلت الباب وراءها وقالت:

ـ اجل، اعلم انك لم تتوقع قدومي. لكن ساق سوزان المقطبة تمنعها من القيام باي نشاط. لذلك افضل العمل على الجلوس في البيت.

فهم تشارلز قصدها لكنه لم يعلق. كانت هارييت مسرورة، فكفى ما دار بالأمس من مصارحة، اما اليوم فتريد ان تمسك بحبل حياتها، وتحاول ان تنسى الذي جرى. انها لا تستطيع العودة الى اندريه بعد الطريقة التي عاملته بها، ومن المستحيل ان يعود هو اليها.

اتصلت والدتها مساء الاثنين للاطمئنان عن سوزان وتكلمت معها ولم تحرص سوزان على عدم تكدير جدتها، لأنها طفلة ويسمح لها باكثر مما يسمح للبالغين.

وحين انتهت المكالمة بدت سوزان قلقة فنظرت اليها هارييت بفضول لكن الفتاة اكتفت بالتنهد وجلست في مكانها على الاريكة. فسألتها خالتها وقد اصبحت على دراية اكبر بمزاجها الحساس:

ـ ما الذي حدث؟

اتكأت الطفلة على الوسادة واجابت بتجهم:

ـ لا شيء.

لكن هارييت لم تصدقها وسألتها:

ـ هيا، خبريني، ماذا قالت جدتك؟

فغصت بريقها وردت:

ـ لم تقل الا القليل.

ثم تهدل كتفاها واردفت:

- هل بامكاننا زيارة جدتي؟ انها قلقة جداً على ساقي.

نظرت اليها خالتها متعجبة وقالت:

- هل ترغبين بالذهاب الى غيلفورد؟

توردت الفتاة وقالت:

- ليوم واحد فقط، نستطيع احتماله؟ اقصد، الا ترغبين بمشاهدة والدتك؟

حاولت هارييت ان تكون صبورة وسألتها:

- هل تشعرين بالضجر هنا؟ اهذا ما يقلقك؟ ان كان ما اقوله صحيحاً فتكلمي يا حبيبتي. اني افهم انك لا تتمتعين بالعطلة ولكن حتى تشفى ساقك لا تستطيع عمل شيء.

هزت سوزان رأسها قائلة:

- لا احس بالضجر! اني احب هذا المكان. لكن جدتي قالت انها اشترت لي هدية.

بدأت هارييت تفهم سبب قلقها وسألت:

- لماذا لم تقولي ذلك منذ البداية؟

بدت سوزان مرتبكة وغمغمت اخيراً:

- انه كلب.

ذهلت هارييت وكررت:

- كلب! من كان ليظن حصول هذا!

- ماذا تقصدين يا خالتي؟

- جدتك لم تسمح ابداً للحيوانات بدخول البيت لكن من الواضح انها كسرت القاعدة من اجلك.

فهتفت سوزان بانفعال:

- انه امر سار. اليس كذلك؟ ساصطحبه في نزهات، وجدتي تقول انه بامكاني ان ادربه بنفسي عندما اتعافى. هل بامكاني تربيته هنا؟

- كلا اذ لا يسمح بتربية الكلاب في الشقق، وجدتك تعلم هذا.

عبست سوزان قائلة:

- يا الهي، لن تقبل جدتي ان تعتني بالكلب لمدة شهر.

- كان عليها ان تأتي به في آخر الفصل.

اجابت الصغيرة:

- لكنها ظنت ان لدي متسعاً من الوقت في العطلة لكي ادربه.

نهضت هارييت وقالت:

- والآن، ما العمل؟

تنهدت سوزان بكآبة وحزنت خالتها لحالها، لم تكن غلطتها فالسيدة انغرام تعمل ما يحلو لها.

قالت لابنة اختها:

- من الأفضل ان تعودي الى بيت جدتك. انها على حق فانت تستطيعين تدريب الكلب في اثناء العطلة.

ردت سوزان بارتياح.

- هل حقيقة تعتقدين ذلك؟ لا اريد ان اتركك.

- لا تقولي هذا يا حبيبتي. لقد نلت اجازتي والآن من الأفضل ان اعود الى العمل. اذهبي انت وتمتعي بهديتك.

لم يكن النهار الذي قضته عند اهلها في غيلفورد نهاراً بسيطاً. اخذت هارييت ملف سوزان الطبي لتعطيه للطبيب هناك، وكان عليها ان توضح كيفية تنظيف الجرح لوالدتها التي صعقت عندما رأت المنظر وهتفت:

- يا للبنية المسكينة!

وعطفها المتزايد كاد يحمل سوزان على البكاء.

اما الجرو فكان متعة للعين واحست هارييت بالارتياح في طريق عودتها بعدما تركت سوزان وهي تلاعب الكلب قرب المدفأة.

لم تبق سوزان عند هارييت لوقت طويل حتى تعتاد عليها. وبعد ايام عادت الى روتين حياتها، انما لم تستطع ان تنام جيداً ولا ان تأكل بشهية، وفي اوقات يقظتها لم يساورها الا فكر واحد هو انها قضت على املها الوحيد في ايجاد السعادة. ولو استطاعت ان تعيش الأسابيع الماضية في فرنسا ثانية، وهي تعلم ما قاله لها تشارلز، لاختلف الأمر تماماً.

في بعض الأوقات كانت تفكر بالعودة الى روشلاك. لم تطلب بعد من الوكيل بيع البيت. وتصورت دهشة اندريه لو علم انها تعيش فيه مرة ثانية. لكن عندما تتصور انه من الممكن ان يعاملها كما عاملته هي، كانت ترفض ان يحدث ذلك. لا جدوى، فهي لا تملك الشجاعة الكافية على

العودة وعلى طلب ما كانت ترفض الحصول عليه.

وفي احد الأيام حصل شيء غير متوقع. كانت تلبي طلبات احد الزبائن، عندما فتح الباب ودخل بول لاروش. نظرت صوبه واتسعت عيناها من الدهشة والخوف عندما رأته. كان يرتدي بنطلون جينز وقميصاً رثاً، لا يختلف عن اي شاب تراه على الطريق. لكنه لا يشبه بالتأكيد الزبائن الذين يترددون على المتجر. كان تشارلز يعلم ان هارييت مشغولة فأتى من الغرفة الخلفية ثم عبس عندما شاهد الصبي. وقال له:

- نعم؟

كانت هارييت تحاول التركيز على العمل بين يديها لكنها سمعت اللهجة الرادعة في صوت تشارلز فأيقنت انه سيتخلص من الشاب. استاذنت الزبون الذي كان يتأمل شمعداناً اثرياً ووقفت بين الرجلين. نظر اليها تشارلز بصبر نافد فقالت له بسرعة:

- هل تعرف ابن اندريه يا تشارلز؟

بدا تشارلز مندهشاً فاستدارت هارييت نحو بول ولاحظت كم فقد الصبي من وزنه ومن غطرسته السابقة، وربما المشهد الذي رآه بينها وبين والده قد غير مشاعره تجاهها. وخاطبته بعفوية:

- هل تبحث عني؟

وتساءلت بخوف ان كان حصل شيء لاندريه، فأجابها بول:

- اجل.

وابتسم لتشارلز الذي كان يستعيد رشده، ثم ركز اهتمامه على هارييت وقال لها:

- هل بامكاني ان اتكلم اليك؟

فقال تشارلز:

- بامكانكما استعمال مكتبي.

لكن هارييت لاحظت اضطراب بول فقالت لتشارلز:

- بل سنذهب لتناول بعض القهوة.

وشدت ذراع تشارلز وهي تمر به ليفهم ثم تبعت بول الى الخارج.

كان النهار مشمساً فمشيا باتجاه الحديقة العامة. اقترحت هارييت ان يشتريا بعض الكعك والعصير. التهم بول الكعكة كأنه يموت جوعاً،

فاحست بالألم وهي تراقبه وسألته:

- متى تناولت الطعام لآخر مرة؟

فاحمر وجه الشاب واجاب:

- يوم امس.

تنهدت واعطته كعكتها التي اكلها بالطريقة نفسها. جلسا على مقعد في الحديقة وادارت هارييت نحوه نظرات متسائلة وقالت:

- ماذا تفعل في لندن؟

فتح بول علبة العصير قبل ان يجيب:

- لقد هربت.

فصاحت به:

- ماذا؟ ولماذا فعلت هذا؟

- هربت منذ عشرة ايام تقريباً وفي تلك الليلة التي وجدتك مع ابي!

حدقت اليه بانذهال وهمست:

- ايه، كلا! ولكن يا بول...

- لا تغضبي ولا تلومي نفسك. كان عليّ ان اصدق... لكنني هربت...

شرب بعض العصير وكانت هارييت تفكر بما ستفعله فسألته:

- هل يعلم والدك أين انت؟

هز رأسه قائلاً:

- لا اظن.

- اذن فهو مشغول عليك الى حد الجنون!

- اجل.

بدا بول جاداً فانفجرت تهتف بتذمر:

- الا تبالي؟

فرد عليها بصدق:

- وهل تبالين انت؟

عندها احمر وجهها وقالت:

- اننا لا نتكلم عني.

- بل نفعل، لأنك هربت ايضاً. أليس كذلك؟

فحدقت اليه وسألته:
- كيف عرفت انني عدت الى لندن؟
- لأني لم اجدك في البيت. واين ستكونين اذن؟
تملكتها الحيرة فسألته ثانية:
- وضح لي من فضلك، ماذا كنت تفعل في البيت؟
تنهد بول وقال:
- حسناً، قضيت الليلة في القصر عندما شاهدتكما معاً لأنني عرفت ان والدي لن يبحث عني هناك وكان يلزمني وقت للتفكير. في اليوم التالي ذهبت الى عمتي في سارلات. لم تشك في امري لكنني فهمت انني لا استطيع البقاء طويلاً. فعدت الى روشلاك لأنني اردت مشاهدتك والتحدث اليك. ولما لم اجدك هناك قررت السفر الى لندن.
هزت هارييت رأسها وكأنها لا تصدق وقالت:
- وهل لديك جواز سفر؟
فهز رأسه نفياً:
- اذن كيف كنت تعيش؟
- استدنت بعض النقود من عمتي، وبواسطة النقل المجاني وصلت الى ديجون في سيارة شحن، ثم اختبأت في المركب الى هنا.
كان يبدو فخوراً بما فعل لكن هارييت ارتعبت وشحب وجهها مما جعل بول يسألها عن السبب فطمأنته قائلة:
- انني بخير ولكن كيف تتصور حالة ابيك الآن؟
فأحنى كتفيه ولاحظت كم ضمرتا عن السابق. اجابها:
- لست ادري، ربما هو لا يبالي.
- انت تعلم ان ما تقوله ليس الحقيقة، فهو تبعك في تلك الليلة ليحاول ان يشرح لك الأمور...
وفهمت لماذا لم يعد اندريه اليها...
تنهد بول ثم سأل:
- وانت لماذا هربت؟
فقالت تنكر الحقيقة وهي تعلم انها تنكرها:
- انا ما هربت بل جئت بسوزان الى بيتي هنا.

- لكن والدي يهتم بك اليس كذلك؟ هل تبادلينه نفس الشعور؟
بدت خائرة القوى وقالت بصراحة:
- اجل ابادله الشعور ذاته. هل هذا ما اردت سماعه؟
قطب بول حاجبيه قائلاً:
- كنت ارغب دائماً في المجيء الى لندن، لكن والدي لم يسمح لي ابداً. لقد اتخذتك عذراً.
- فهمت.
- اما الآن فأريد العودة الى البيت.
اخفت ارتياحها وسألته:
- كيف وجدتني يا بول؟
- وجدت اسم والدتك في دليل التلفون واستعملت آخر نقودي لاتصل بك. لكن امرأة اخرى ردت علي تدعى السيدة بيرنز، اعطتني عنوانك هنا، فجئتك كما ترين.
تنهدت هارييت قائلة:
- اوه، بول!
- كانت مغامرة شيقة أليس كذلك؟
- كيف سأعيدك الى فرنسا وانت لا تملك جواز سفر؟
نظر اليها بول متوسلاً وقال:
- ستجدين طريقة، انني واثق من ذلك.
وتساءلت هارييت، هل جاء الى لندن لمقابلتها ام لكسب عطفها؟ لكنه اراد ان يأتي الى لندن وربما لم تعجبه. في كل حال، انها مدينة لأندريه باعادة ابنه الى البيت، والشخص الوحيد الذي يمكنه ايجاد طريقة هو تشارلز.

١١ - وانقشع الضباب

تركت هارييت منزل تشارلز في وقت متأخر، حيث امضت امسية طويلة مع بول بينما كان تشارلز يتصل ببعض الاصدقاء في وزارة الخارجية ويحاول تفسير الأمور للمراجع المختصة. تقرر سفر بول صبيحة اليوم التالي عل متن طائرة ثم يستقل سيارة تنتظره في المطار لتأخذه الى البيت. طلب تشارلز من الشاب ان يقضي الليلة عنده، الأمر الذي اراح هارييت. وبالرغم من ذلك احست بالارهاق عندما وصلت الى شقتها. ثم رأت سيارة والدها متوقفة امام البناء ففكرت باعياء، ماذا الآن، ماذا يفعل هنا في هذه الساعة المتأخرة؟

لم يكن في السيارة وادركت ان حارس البناية قد ادخله الى الشقة. استقلت المصعد وعندما وصلت الى الممر، رأت في الظلام رجلاً متكئاً عل الحائط. كتمت صرخة خوف. ولكن حتى في الظلام عرفت انه اندريه ونظرت اليه بشغف. فقال لها:

- لقد تأخرت.

كلماته الباردة اعادتها الى الواقع فاحمر وجهها. ماذا يفعل هنا؟ هل اتى باحثاً عن بول؟ وان فعل لماذا يفترض انها تعلم شيئاً عن الموضوع؟ بحثت في حقيبتها عن المفتاح وفتحت الباب ودعت اندريه الى الدخول. سبقته الى البهو لتضيء النور. تبعها اليه ومن ثم الى غرفة الجلوس حيث نزعت سترتها. كانت متضايقة لأن شعرها مبعثر وعلى كم قميصها الحريري بقعة دهان. اما اندريه فكان يرتدي بزة رمادية في غاية النظافة، ويبدو مرهقاً منشغل البال. قالت له بصوت اعل قليلاً من المعتاد:

- اظنك تبحث عن بول.

ثم ارتعدت عندما اجتاز الغرفة باتجاهها وهزها من كتفيها قائلاً بوجوم:

- بول! هل رأيت بول؟

كانت عيناه تلمعان ببريق غريب واحست هي بحيرة شديدة فردت متلعثمة:

- انا . . . اجل لقد رأيته.
- ولم تفكري في ان تعلميني بذلك؟

تركها بخشونة فجائية كادت تفقدها توازنها واردف:

- ولماذا تتصلين بي ما دام الأمر لا يهمك، أليس كذلك؟

نظرت اليه بخواء ومدت يدها لتمنعه من الانصراف وقالت:

- انتظر يا اندريه، لم يكن عندي وقت لاعلمك. رأيته لأول مرة اليوم!
- ماذا؟

واستدار ليحدق فيها غير مصدق كلامها فتملكها الارتباك واجابت بصدق:

- هذا صحيح، اقسم لك. لقد اتى الى المتجر صباح اليوم.

تنفس اندريه بصعوبة وقال وهو يمرر اصابعه المرتجفة في شعره:

- لقد فتشت عنه في كل مكان. يا الله، كيف اتى الى لندن؟

فأخبرته هارييت قائلة:

- اتى الى ديجون ثم اختبأ عل المركب.
- يا الهي، وأين هو الآن؟
- انه يقضي الليل عند تشارلز.
- هوكني؟
- نعم.

وحركت كتفيها متابعة:

- لقد جئت لتوي من هناك، هذا سبب تأخيري.
- وهل هو عل ما يرام؟
- بول؟ اجل انه يرغب في العودة الى البيت. وقد اهتم تشارلز بالترتيبات اللازمة لذلك.

كان اندريه كأنه لا يصدق ما يسمع، فأشارت هارييت نحو المقعد وهي

تتساءل، اذا لم يأت اندريه الى هنا بحثاً عن بول، اذن لماذا اتى؟ وغمغمت بلطف:

- ارجوك، تفضل بالجلوس، سأحضر القهوة.

هز رأسه كأنه دائخ وقال وهو يتقدم خطوة منها:

- يجب علي ان اعتذر. . .

لكن هارييت اسكتته قائلة:

- لا حاجة. . .

- حسناً. اعذريني ان كنت قد روعتك، لكن هذا الأسبوع كان رهيباً.

لاحظت الألم في عينيه عندما تابع قائلاً:

- اولاً بول، ثم انت! اعجب كيف لم افقد عقلي بعد.

فردت بصوت مرتجف:

- اوه، اندريه، ماذا تفعل هنا؟

- يجب ان تفهمي ان الوقت متأخر واني متعب، لكن كان علي ان اراك. لقد انتظرتك ساعتين تقريباً.

فشدت على خصلة من شعرها بشرود وسألته:

- السيارة التي تقف في الخارج، اهي سيارة والدي؟

- اجل، لكن لا تطلبي مني ان اشرح لك. . . ليس الآن، دعيني فقط انظر اليك.

اسودت عيناه، واحست بضعف في ركبتيها وهي تلفظ اسمه باحتجاج انما لا شيء استطاع ردعها عن لمس وجهه المرهق. قال وهو يتنفس بعنف:

- لقد تركتني اكثر من مرة، فلماذا استمر بالعودة؟

بللت هارييت شفتيها بلسانها وهمست:

- قل لي انت السبب.

- لقد كتبت لتشارلز. ألم يخبرك؟ لكنه لم يجب فاعتقدت انك قد تزوجت فروضت نفسي على الفكرة، الى ان ظهرت مجدداً كملاك منتقم وحطمت راحتي النفسية الى الأبد.

- اوه، اندريه، يجب ان تصفح عني. . .

- اسامحك، لماذا؟

هز رأسه بمرارة وتابع:

- لأنك تركتني عندما كنت في امس الحاجة اليك؟

ارتجفت هارييت وقالت:

- لم استطع اعلامك.

- لقد تسلمت رسائلي وكان باستطاعتك اجابتي عبر صالة المزاد.

- اندريه، كنت متزوجاً! وقلت ان لا مجال للطلاق.

- اللعنة! اني اعلم، اعلم. . . لكن كان عليك ان تفهميني ان الحالة لم تكن حسبما تظنين. اعلم انك تتصورين انني اسأت معاملة زوجتي، ربما انت على حق لكنها لم تعلم.

استدار فجأة وتابع وهو يمسد عنقه بيده المتعبة:

- كانت مريضة. . . تعاني من مرض عقلي. وقضت آخر اثني عشرة سنة من حياتها في مستشفى للأمراض العقلية!

- اني اعلم.

فنظر اليها مستغرباً وقال:

- تعلمين!

- قام تشارلز بالاستقصاءات اللازمة بعدما كتبت اليه.

- اذن عرفت!

بدا على وجهه عذاب مرير فسارعت الى القول:

- عرفت هذا منذ بضعة ايام فقط.

تقدمت منه بشوق واضافت:

- اندريه! اندريه، تصورت انك لا تهتم! انك لن تهتم ابداً.

فغمغم وهو يمرر اصابعه في شعرها:

- كنت فتاة صغيرة وجميلة، فلم اسمح لنفسي ان اطلب اليك هدر شبابك في انتظاري.

- وأي هدر هذا، ليتك اعلمتني!

تنهد اندريه:

- لم استطع ذلك، اذ لو اخبرتك لصممت ربما على انتظاري، ولربما اضجرك الانتظار، وما كنت لأطيق ذلك.

- اوه اندريه!

نظر الى فمها وسألها برقة:

- هاريت . . . الا تريدين ان تعرفي سبب وجود سيارة والدك في الخارج؟
- اذا اردت ان تخبرني . . .
تحركت شفتاه بكسل:
- الا تريدين ان تعرفي انني عدت لأصطحبك معي؟ وانني قلت لوالديك انني انوي الزواج منك؟
اتسعت حدقتاها وقالت وهي تركع قربه وترمقه بشغف:
- عدت لتطلب مني هذا يا اندريه؟
فأجابها:
- تلك الليلة، في البيت، قبل ان يقاطعنا بول. لا تنكري ان حبك لي كان ظاهراً.
احمرت وجنتاها واعترفت له بحبها.
فتنهد بصبر نافد وقال:
- ولكنك هربت.
- كان علي ان اهرب. . . شعرت بالخجل. لم اثق بك ولا بنفسي.
- اوه هاريت، ليتك سمحت لي بأن اوضح الاشياء. . .
فأجابت وهي تلمس خده بأصابعها الدافئة:
- تشارلز فسر كل شيء بالنيابة عنك.
- اشكر الله على وجود تشارلز! (ثم ابتسم لها بلطف واردف:)
- لقد ذكرت شيئاً عن القهوة.
فنهضت وتبعها الى المطبخ ووقف ينظر اليها. كان قد خلع سترته فحدقت اليه وهي تفكر انها لم تحس بقوة حبها له مثل الآن. قال:
- لم تتعجب والدتك عندما رأتني.
- وماذا قالت؟
- سألتني لماذا اردت مقابلتك واعتقد ان اباك ادرك قصدي.
- لكن لماذا ذهبت الى غيلفورد؟
- كان المتجر مقفلاً والساعة تناهز الخامسة. . .
- اجل، لقد اقفل تشارلز مبكراً من اجل بول.
- تذكرت ان والديك يسكنان غيلفورد، فأخذت القطار الى هناك.

فأكملت عنه:
- ووالدي اعارك سيارته لتأتي بها الى هنا؟
- عندما اكدت له نواياي الحسنة.
- وماذا عن بول؟
تنهد اندريه، فقالت:
- انه يعلم بعلاقتنا.
- رآنا معاً، هل هذا ما تقصدين؟
فردت بارتباك:
- كلا. . . انا . . . انا اخبرته انني احبك.
- وماذا اجابك؟
- لم يستغرب الأمر.
- اجل، لم يستغرب، ففي تلك الليلة. . . حين قصدتك لأدعوك الى العشاء معنا، قلت له وللويز عن شعوري نحوك.
- اوه، اندريه!
- لا احسبه صدقني. وربما لذلك اتى الى البيت. في كل حال اختفى تلك الليلة ولم اره بعد ذلك.
- قال لي بول انه امضى تلك الليلة في القصر، وفي اليوم التالي ذهب الى سارلات.
- شقيقي، اجل، سمعت بذلك. . . هاريت، امضيت الاسبوع وانا ابحث عنك. اردت ان اتبعك في الحال لكن ضميري لم يسمح لي. كان علي ان اجد بول اولاً. وفي الأخير لم استطع الانتظار اكثر، وماذا وجدت؟ وجدت انك عثرت على ابني!
فصححت له بلطف:
- كلا، هو الذي عثر علي.
واخبرته كيف وجد بول عنوانها.
شرعت القهوة تغلي في الابريق لكن هاريت لم تلاحظ. قال اندريه:
- اريدك ان تأتي معي الى فرنسا. . . معي ومع بول.
- حسناً، اذا كان هذا ما تريد.
- حبيبتي، انت تعلمين ماذا اريد بل ماذا اردت دائماً. ولكن يجب ان

اتكلم اولاً عن آيرين...

- ايرين؟ زوجتك؟

تنهد قائلاً:

- اجل. لن اكذب عليك بالقول انني لم اكن احبها. كنت اراها رائعة وكنت شاباً في مقتبل العمر... لم تظهر عليها اعراض المرض الا في وقت لاحق.

فوضعت اصابعها على شفتيه وقالت:

- لست مضطراً الى اخباري...

فاجابها انه يريد ذلك، وتابع:

- اشياء كثيرة حدثت منذ تزوجنا. لقد خسر آل روشفور الكثير اثناء الثورة. كنا اغنياء، والآن اصبحت مجرد مزارع.

- انظن ان الأمر يهمني؟

- اظن انك تحبينني...

- اجل.

- وانا احبتك وسأحبك حتى النهاية. هل يكفي هذا؟

- وماذا اريد اكثر؟

- هناك شيء واحد يجب ان اضيفه. ان الطبيب الذي عالج آيرين في ذلك الوقت قال ان الحمل زاد حالتها سوءاً.

- لا يهم هذا يا حبيبي.

أجابها وعيناه تتقدان حباً.

- الأمر مهم بالنسبة الي، فلا احتمل ان يصيبك مكروه، والحمل شيء مشؤوم في حياتي. لقد تعذبت آيرين كثيراً، وأنت...

- لماذا تقول هذا يا اندريه؟ الا تريد ان يكون لنا اطفال؟

- ربما.

فأخفت وجهها في صدره وهمست بصوت أجش:

- حاول ان تمنعني!

- لا احسبني استطيع ذلك!

فابتسمت ورفعت اليه وجهها المشرق بالهناء والاخلاص، فيما زينت شفتيها ابتسامة عذبة.